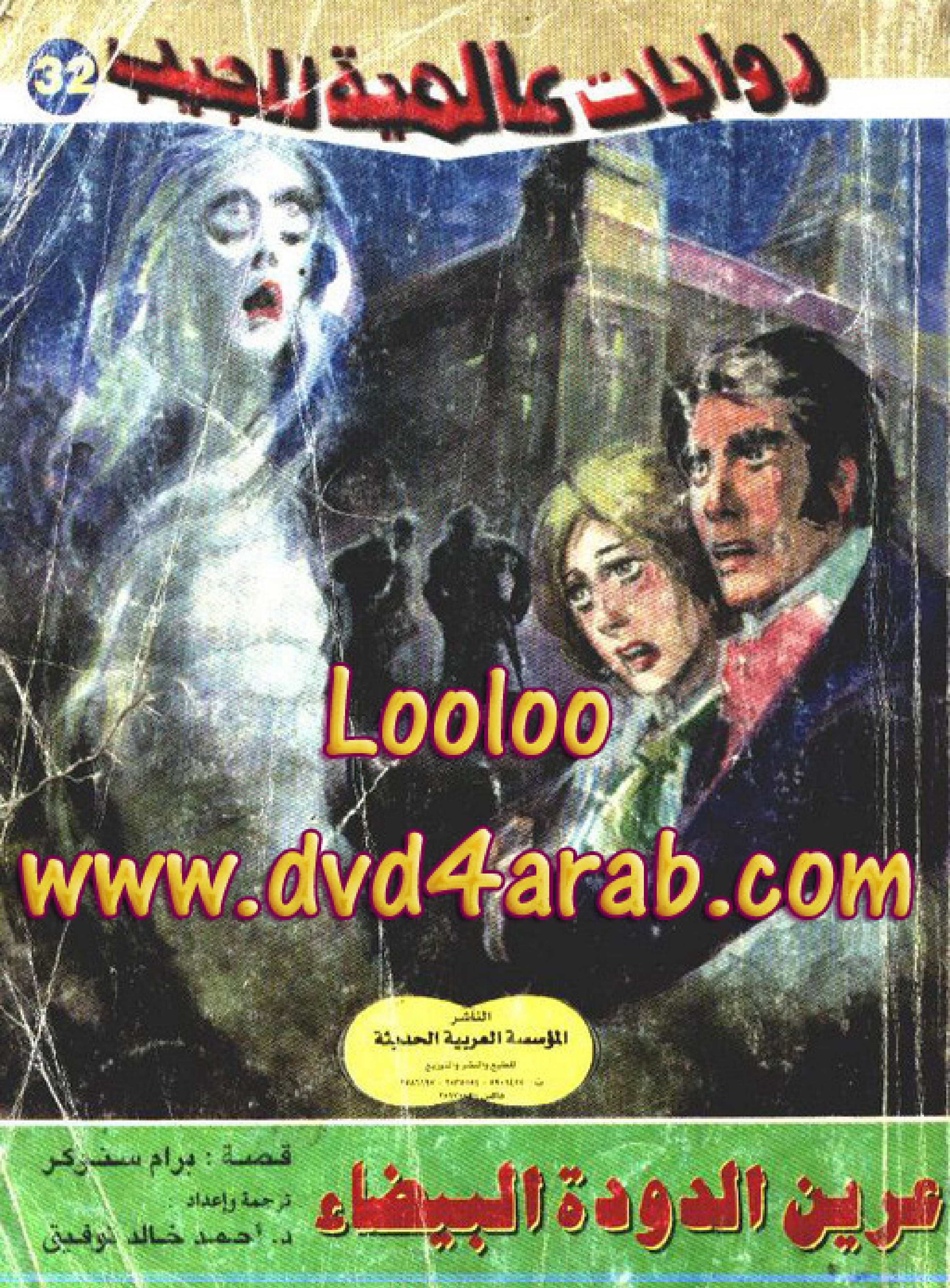

روايات عالمية للجيب
32
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
قصة : برام ستوكر
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق
عرين الدودة البيضاء

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



لا يُذكر اسم (برام ستوكر) إلا وتثب إلى الذاكرة على الفور روايته عظيمة النجاح (دراكيولا) ، التى كتبها عام 1897 .. إلا أن (ستوكر) - فى الواقع - لم يبتكر شخصية (دراكيولا) من فراغ .. لقد سبقه (دوما) بتقديم شخصية مماثلة فى مسرحية من فصل واحد .. ولكن (برام ستوكر) قام بمزج عدد لا بأس به من الأساطير الرومانية القديمة عن (لاميا) التى تشرب الدماء البشرية ، مع الأسطورة العبرية الشهيرة عن (ليليث) ، مع لمسات من رواية فائقة الشهرة في ذلك الحين هى (كارميللا) التى كتبها (شريدن

دى فانو) ، مع لمسات من الرعب القوطى السائد فى عصره ـ رعب البرق ، والشمعدانات ، والكونتات الغامضين المتشحين بالسواد ـ مع شخصية (فلاد الوالاشى) نفسها المثيرة للجدل ، والتى عرف كل شىء عنها من جلساته مع جاسوس مجرىّ يُدعى (أرمينوس فامبيرى) ، وبالتالي صنع ذلك الخليط الناجح الذي نعرفه .. وقد غدا من العسير اليوم أن نتخيل (دراكيولا) فى صورة أخرى ، غير التي رسمها (برام ستوكر) .. ولا يعرف الكثيرون أنه خلّد ذلك الجاسوس المجرى المُلهم فى شخصية (فان هلسنج) .. خبير مصاصى الدماء وعدو (دراكيولا) السرمدى ..

من هو (برام ستوكر) الذى ابتكر كل هذه العوالم الرهيبة ؟

(أبراهام ستوكر) هو كاتب بريطاني ، ولد عام 1845 ، وتوفى عام 1912 .. نشأ فى (دبلن) بـ (إيرلندا) وتخرج فى جامعتها ، قضى عشرة أعوام من عمره كناقد أدبى ومسرحى ، وفى عام 1876 غادر (إيرلندا) ليعمل كمدير أعمال الممثل الإنجليزى

السير (هنرى إرفنج) ، وشاركه فى إدارة مسرح (ليسيوم) بـ (لندن) حتى توفى الممثل الشهير.. بعدها قرر (ستوكر) أن يتفرغ للكتابة ..

من قصصه الشهيرة الأخرى (عرين الدودة البيضاء) ـ التى نقدمها هاهنا ـ و(ضيف دراكيولا) ، و (مدفن الفئران) ، و (ممر الثعبان) ، و(جوهرة النجوم السبعة) التى اشتهرت باسم (دماء من تابوت المومياء) .. وكلها دشّنت بحق اسمه كواحد من أهم الأسماء فى عالم أدب الرعب ، ورشحته لموضعه البارز إلى جوار (مارى شيللى) و(إدجار آلان بو) وسواهم ..

كنا بطبيعة الحال نرغب فى تقديم أشهر رواياته (دراكيولا) ؛ لكن القصة قد تُرجمت إلى العربية بالفعل مرارًا تفوق الحصر .. ولن نضيف جديدًا بتقديمها هنا..

لكن القصة التى نقدمها هنا ممتعة بحق ، وقد استوحاها من أسطورة رومانية رهيبة أخرى عن الكونتيسة (باثورى) التى ... التى ...

كلا .. إن التلميح سيفسد القصة بالكامل !

* * *

الفصل الأول

وصول آدم سالتون

وصل (آدم سالتون) إلى فندق الإمبراطورية فى (سيدنى) ، فوجد بانتظاره خطابًا من عمه .. وكان قد سمع عن السيد العجوز منذ أقل من عام ، حين طالب (رتشارد سالتون) بإثبات قرابته له ، قائلاً : إنه لم يستطع الكتابة له من قبل ، لأنه وجد من العسير أن يجد عنوان ابن أخيه ، و قد سرّ (آدم) ورد فى حماس على الخطاب ، فلطالما سمع أباه يتحدث عن الفرع القديم للأسرة ، الذى فقد آله رابطتهم معه .. وتلت هذا بعض مراسلات مهمة بينهما ..

وفتح (آدم) الخطاب الذي وصل على الفور ، وفيه يدعوه عمه إلى اللقاء فى (لسر هيل) ..

ـ « بالتأكيد .. »

استطرد (رتشارد سالتون) فى الخطاب :

ـ « أنا آمل أن تقيم هاهنا أبدًا ، فأنت وأنا يابنىّ آخر من بقى من سلالتنا ، ولسوف تخلفنى حين يحين أجلى ، ولقد بلغت سن الثمانين فى هذا العام البركة 1860 ، وبرغم أننا قوم طويلو العمر ، فلا يمكن أن تمتد حياتنا أكثر مما هو معقول ..

« إننى متأهب لأن أحبك ، وأن أجعل إقامتك معى سعيدة ، لذا تعال لى فور استلامك لهذا الخطاب .. وأرسل لك ـ إن كان هذا يجعل الأمور أيسر لك ـ حوالة مصرفية بمائتى جنيه .. تعال سريعاً لننعم بأيامنا معاً .. فقط دعنى أعرف متى أتوقع بهجة رؤيتك ..

« حين تصل إلى (بلايموث) أو (ساوثهامبتون) أو أى مرفأ تختاره ؛ انتظر على ظهر السفينة ولسوف أوافيك فى أقرب وقت ممكن . »

وسر مستر (سالتون) العجوز حين وصلته إجابة (آدم) بالقبول ، وأرسل له صديقه العزيز سير

(ناتانييل ساليس) ، وأعطى تعليمات بإعداد عربة لابن أخيه فى هذا اليوم المهم ، تتجه إلى (ستافورد) لتلحق بقطار 40 : 11 صباحًا ، وهناك ربما يمضى الليل مع ابن أخيه على ظهر المركب - وهى خبرة جديدة بالنسبة له - أو فى فندق .. وفى كلتا الحالتين سينطلقان فى الصباح إلى الوطن .. وخطط أن يرى ابن أخيه - الذى عاش طيلة حياته فى أستراليا - شيئًا من ريف إنجلترا طيلة الطريق .. وكانت لديه مجموعة من خيول قام بتربيتها بنفسه ، لذا أوصى أن تجر العربةَ التى ستقلهما ، أما المتاع فسوف يُرسل بالعربة من (ساوثهامبتون) .. وأمل فى رحلة يتذكرها الشاب أبدًا ..

كان متوترًا طيلة الرحلة بالقطار ، وراح يتساءل إن كان ابن أخيه يشعر بذات التوتر .. ودنا القطار من المرفأ وتوقف ، ليثب شاب إلى داخل العربة :

- « كيف حالك يا عماه ؟ لقد تعرفتك من الصورة التى أرسلتها إلىّ .. أردت أن ألقاك بأسرع ما يمكن ،

وهأنذا أمامك أخيراً .. لقد ظللت آلاف الأميال أحلم بهذه السعادة ، والآن أجد أننى لم أكن واهماً »

كانا يتكلمان وهما يهزان يدى بعضهما فى حرارة .. وكان اللقاء ناجحاً بحق ..

كان انبهار العجوز بجدة المركب واضحاً ، وحلا له أن يمضى الليل على ظهرها .. ولقد عرض الشاب تسليمه التام بأى اختيار يروق للعجوز .. لم يعودا فقط مرتبطين بصلة القرابة ، لكنهما شعرا كأنهما صديقان قديمان .. لقد وجد قلب العجوز الخاوى مسرة جديدة .. وسرعان ما بدأ يخاطب الفتى باسمه الأول رافعًا الكلفة ..

وإذ توجها إلى القمرة التى سيبيتان ليلتهما فيها ، وضع العجوز يده على كتف الفتى ، فبالنسبة لعمه كان (آدم) الذى بلغ السابعة والعشرين من عمره طفلاً وسيظل كذلك ..

- « أنا سعيد إذ وجدتك يا عزيزى .. أنت الشاب الذى تمنيت طيلة عمرى أن يكون ابنًا لى فى الأيام

التى كان لى أن آمل فيها .. إن حياة جديدة ستبدأ لكلينا ، وأظن أن لدى من الوقت ما يسمح لى بالاستمتاع بها .. لكنى لم أجرؤ قط على ربط حياتك الشابة بحياتى العجوز ، إلى أن تكون بيننا معرفة شخصية كافية .. الآن أرى فيك ابنى ، كما كان ينبغى أن يكون .. »

ـ « حقًا يا سيدى .. بكل إخلاص .. »

امتلأت عينا العجوز بالعبرات ، وارتجف صوته ، وبعد صمت طويل استطرد :

ـ « حين عرفت بقدومك كتبت وصيتى .. فمن الخير أن أعنى باهتماماتك من هذه اللحظة .. هاهى ذى الوصية ، فاحتفظ بها يا (آدم) .. إن كل ما لدىّ سيؤول إليك ، ولو كان الحب والأمانى الطيبة قادرين على جعل الحياة أفضل ؛ فلسوف تكون حياتك حياة سعيدة .. والآن يا بنى لسوف ننطلق مبكرًا هذا الصباح ، وأمامنا طريق طويل .. أتمنى ألا تضايقك القيادة ، كنت سأجلب عربة السفر القديمة التى ذهب بها جدى إلى البلاط ، حين كان ويليام الرابع ملكًا ،

فهى ما زالت فى خير حال ... لكننى جلبت عربتى الخاصة بخيولها التى ربيتها بنفسى .. أرجو أن تكون محبًا للخيل ، لقد ظلت طويلاً من أهم اهتماماتى فى الحياة .. »

ـ « أحبها يا سيدى .. ويسرنى أن أقول : إن لدى الكثير منها أيضاً .. لقد أهدانى أبى حصان مزرعة حين بلغت الثامنة عشرة .. واليوم علمت أن لدى نحو ألف حصان ، كلها فى خير حال .. »

ـ « هذا يسرنى يا بنى .. هى ذى رابطة أخرى بيننا .. لسوف أحكى لك عن وطنك المستقبلى فى أثناء رحلتنا .. سنسافر بالطريقة القديمة .. لقد اعتاد جدى أن يقود أربعة خيول فى عربة واحدة ، وكذا سنفعل ..»

ـ « آه يا سيدى .. شكرًا شكرًا ! هل لى أن أمسك باللجام من آن لآخر ؟ »

ـ « كل ما تريد يا (آدم) .. فكل حصان هو ملك لك .. »

ـ « أنت بالغ الكرم يا عماه .. »

ـ « بل هى متعة أنانية لرجل عجوز .. فلا يحدث كل يوم أن يصل وريث للبيت العتيق .. و .. بالمناسبة .. لا .. من الخير أن ننام الآن ، ولسوف أقص عليك الباقى فى الصباح .. »

* * *

الفصل الثانى

آل (كاسوول) و (كاسترا ريجس)

كان مستر (سالتون) طيلة حياته ممن يصحون من النوم مبكرًا ، وبالضرورة ممن يغادرون الفراش مبكرًا ، لكن حين فتح عينيه مبكرًا فى هذا الصباح على صوت هدير آلات السفينة العملاقة ؛ قابل عينى ابن أخيه النائم فى مضجعه يرمقه فى ثبات ..

كان ابن أخيه قد أعطاه الأريكة ونام هو على المضجع السفلى .. وبرغم أن العجوز كان قويًا ؛ إلا أن وعثاء السفر فى اليوم السابق أنهكته ، فوجد راحة فى الرقاد حيث هو ، تاركًا عقله نشيطًا يتابع كل ما يحيط به ..

وكان (آدم) قد اكتسب عادات الرعاة من حيث جاء ، لذا صحا مع الفجر ، وراح يرتقب فى شغف

خبرات اليوم الجديد .. وكذا نهض الرجلان وارتديا ثيابهما ، وهبطا إلى المرفأ يبحثان عن المتاع ..

وجدا وكيل أملاك (سالتون) يفتش عنهما فى الميناء ، فاقتادهما إلى المتاع .. وراح (ريتشارد سالتون) يبين فى فخر لابن أخيه كم أن العربة مناسبة لأغراض الرحلة ..

« أترى ؟ إن بها كل مزايا السفر .. الرفاهية والهدوء بالإضافة إلى السرعة .. لا شىء يحجب الرؤية عن المسافرين ، ولا أحد يمكنه سماع ما يقولون .. ستجربها بنفسك .. لسوف نسافر فى قلب (إنجلترا) ، وفى الآن ذاته سأكلمك فيما لمحت إليه البارحة .. سيكون طريقنا عبر (ساليزبورى) .. (باث) .. (بريستول) .. (شلتنهام) .. (وورشستر) .. (ستافورد) .. فالبيت .. »

ـ « هل لرحلتنا اليوم يا سيدى علاقة بما حدثتنى عنه أمس ؟ »

ـ « ليس بشكل مباشر .. لكن بشكل غير مباشر : لها كل علاقة ! »

ـ « ألا تنوى أن تحدثنى الآن ؟ أرى أنه ما من أحد يمكنه سماعنا .. »

وهكذا بدأ (رتشارد سالتون) يتحدث :

ـ « كى أبدأ من البداية يا (آدم) ؛ لقد كانت محاضرتك عن (الرومان فى بريطانيا) التى أرسلتها لى بريديًا هى ما جعلنى ألم باهتماماتك .. لذا كتبت إليك كى تلحق بى .. فقد خطر لى أنه لو كنت أنت مغرمًا بالتاريخ فهذا المكان هو بالضبط ما يناسبك .. و لو كان بوسعك أن تعرف كل هذا عن الرومان فى بريطانيا ـ وأنت فى (نيو ساوث ويلز) حيث لم يعد لهم من أثر ـ فماذا لو درست هذا الموضوع فى وطنه الأصلى ؟ إن البلد الذى نحن ذاهبان إليه هو قلب مملكة (مرشيا) حيث آثار كل القوميات التى صنعت ذاك الخليط ، الذى صار هو (بريطانيا) فيما بعد .. »

ـ « فهمت أن لديك أسبابًا أقوى وأكثر شخصية لهذه العجلة .. فالتاريخ ـ بعد كل شىء ـ يمكن أن ينتظر ، إلا فى صنعه ! »

- « أنت محقَ أى بنى .. إن لدى أسبابًا كالتى خمنتها مصيبًا .. كنت متعجلاً لقدومك ، إذ يقع الآن بالذات جزء مهم من تاريخنا المحلى .. الحقيقة هى أن أكثر ملاك الأرض هنا ، ومنذ قرن كامل ، كانوا يؤثرون الحياة بالخارج .. »

- « وكيف يا سيدى إن كان لى أن أسأل ؟ »

- « إن البيت الأعظم فى هذا الجزء من العالم هو (كاسترا ريجس) .. مقر أسرة (كاسوول) .. وآخر مالك عاش هنا هو (إدجار كاسوول) جد القادم الجديد هاهنا ، وكان آخر من أقام هنا لفترة ..

« وكان جد هذا المالك ويدعى (إدجار) بدوره - هؤلاء القوم يكررون أسماءهم الأولى - قد تشاجر مع ذويه ، ورحل إلى الخارج ، وانقطعت علاقته تماماً بأقاربه .. لكن حفيده - وهو آخر الورثة - تربى فى الخارج حتى سن الثلاثين ، وهو سنه الحالى ، وظل (كاسترا ريجس) يجهل كل شىء عن مالكه طيلة خمسة أجيال ، أى نحو مائة وعشرين عامًا .. لكن البيت

بقى فى خير حال ، ولم يشكُ أحد من سكانه من شىء قط .. لكننا جميعًا شغوفون برؤية الوريث القادم غدًا إلى إرثه هنا .. وحتى أنا - برغم أننى أملك ضيعتى الخاصة الملاصقة لـ (كاسترا ريجس) - أتطلع فى فضول إلى رؤيته .. أنت ترى من هنا قمة كاتدرائية (ساليزبورى) ، ولسوف ندنو بعدها من الأرض الرومانية .. عندها ستحتاج إلى عينيك بشدة ..

« لا أريدك أن تشعر بإحباط .. لكن صديقى القديم سير (ناتانييل ساليس) - وهو مثلى يملك ضيعة قرب (كاسترا ريجس) تدعى (برج القيامة) - آت ليقيم معى ، كى نعد مراسم استقبال (إدجار كاسوول) .. لسوف تميل إليه حتماً ؛ فهو يعشق التاريخ ، ويعرف عن هذا البلد أكثر من سواه ، وهو رئيس (جمعية الآثار المرشيانية) .. ستكون لنا محادثة طويلة بعد العشاء .. إنه يعرف كذلك كل شىء عن القمة وكهوفها ، ويعرف الكثير عن أساطير ما قبل التاريخ هاهنا .. »

ما إن دنا الغسق ، حتى دخلا إلى (لسر هل) حيث يعيش مستر (سالتون) ..

كان الظلام قد صار دامسًا يمنع رؤية أى شىء يحيط بهما .. فقط أدرك (آدم) أن المنزل على قمة هضبة ليست بارتفاع الهضبة الأخرى ، التى على قمتها قلعة فوقها علم وتلتمع كلها بالأنوار الوهاجة .. واضح أنها تستعد للاحتفال بالوريث القادم غدًا ..

وعلى الباب قابل عم الفتى رجلاً عجوزًا حسن المظهر ، حياهما بحرارة :

ـ « جئت مبكرًا كما طلبت منى .. أحسب هذا ابن أخيك .. مرحبًا بك يا مستر (سالتون) .. أنا (ناتانييل ساليس) وعمك هو أقدم صديق لى .. »

من اللحظة الأولى ؛ شعر (آدم) بأنه والرجل صديقان من زمن .. كان سير (ناتانييل ساليس) رجلاً خبر العالم ، وقد سافر كثيرا ، ودرس بعمق في نقطة معينة من العلم .. كان محدثًا لبقًا متحفظًا ، لكنه بدأ يتحمس إذ رأى حماس الشاب ، ليسمع ويتعلم منه ..

وسرعان ما انتهت المحادثة التى بدأت بالمجاملات القلبية إلى محاضرة شائقة ..

وحين انتهى العشاء وانسحب الخدم ؛ بدأ السير (ناتانييل) يتكلم :

ـ « الحق أن عمك صديق عزيز قديم ، لهذا أوثر أن أتخلى عن الرسميات بعد إذنك ، وأتحدث إليك كـ (آدم) وكأنك ابنه . »

ـ « ليس أحب إلى من هذا .. »

وسرت الإجابة الشيخين ، لكنهما ـ كعادة الإنجليز فى عدم إظهار عواطفهم ـ دخلا فى الموضوع مباشرة .. و قال (ناتانييل) :

ـ « أحسب أن عمك كلمك عن آل (كاسوول) ؟ »

ـ « جزئيًا يا سيدى .. لكنى توقعت أن أسمع تفاصيل أكثر منك لو تفضلت .. »

ـ « هذا يسرنى .. إن أول (كاسوول) أعرفه هو (إدجار) ، الذى جاء هاهنا فى عهد الملك (جورج



وحين انتهى العشاء وانسحب الخدم ، بدأ السير (ناتانييل) يتكلم :
ـ « الحق أن عمك صديق عزيز قديم » ..

الثالث) .. وتشاجر مع ابنـه لسبب لا يعلمه أحد فى جيلنا هذا ..

« كانت نتيجة المشادة هى أن الابـن هجر البيت ، دون أن يخبر أباه بوجهتـه .. ولم يعد قط حتى مات بعد هـذا بأعـوام .. تزوج فى الخـارج ، وأنجب ابنًا واحـدًا .. و قـد نما هـذا الابـن دون أن يعـرف قط ما يخصه من أملاك .. لقد حدث شرخ لا يمكن تجاوزه فى الأسرة ، ولولا يقظة المحامين ، لما عرف أحد شيئًا عن ميلاد هذا الابن ..

« بعد هذا انحصر نشاط الأسرة فى وراثة الضيعة ، وانحصر الميراث الآن فى حفيد هذا الرجل .. من الخير لـك أن تعـرف خصـائص تلـك السـلالة جيـدًا .. إنهـم متحفظون لا يتبدلون.. كلهم بـاردو الطبـاع .. أنـانيون.. مسيطرون .. غير مبالين بالعواقب .. ولو ارتكب أحدهم خطـأ ما ، فعلى شخص آخـر أن يتحمـل عواقب هـذا الخطأ .. وقد تكرر هذا كثيرًا ، حتى بـدا كأنه سياسة ثابتة يلتزمون بها .. فى طباعهم غلظة وبرودة ، حتى

إن أحدهم لم يسمح لنفسه ـ على قدر علمى ـ بأن يستشعر عاطفة رقيقة ، أو يصغى لما يمليه عليه قلبه قط ..

« ولسوف ترى فى صورهم أنهم أقرب للطابع الرومانى فى الوجوه .. عيونهم واسعة ، وشعورهم مجعدة حالكة السواد .. و ملامحهم صلبة قوية ، لكن أهم ما فيها هى العيون .. عيون سوداء نافذة ثاقبة لا يمكن تحملها .. و هى قوة نصفها يمت لسلالتهم ، ونصفها يمت لشخوصهم .. قوة يمازجها شىء غامض ينوم مغناطيسيًّا ويفتن .. وبعيون كهذه ، يحتاج المرء إلى كل إرادته ، كى يقاوم تلك الإرادة الكاسحة التى لا ترد ..

« قد تحسب يا (آدم) أن كل هذا من نسج خيالى .. خاصة وأنا لم أر أحدهم قط .. لكنه خيال جاء بعد دراسة عميقة .. ولا عجب مع كل هذه الصفات أن يعتقد الناس فى الخارج أن هذه السلالة تحت استحواذ شيطانى ما ..

« والآن أحسب أن علينا أن نأوى إلى فراشنا .. فلدينا عمل كثير غدًا .. وعليك أن تبقى عقلك صافيًا .. لربما قمنا بجولة صباحية تريك جغرافية هذا المكان ككل ، بينما الأمور ما زالت واضحة جلية فى ذهنك .. فكلما رأينا أشياء أكثر فى البداية ، كلما استطعنا فهم ما يستجد من أمور فيما بعد .. »

* * *

الفصل الثالث

أيكة ديانا

جعل الفضول (آدم سالتون) يصحو من نومه مبكرًا .. لكن ما إن ارتدى ثيابه وهبط إلى أسفل حتى اكتشف أن (ناتانييل) قد سبقه فى الاستيقاظ .. وأن السيد العجوز قد تأهب لرحلة طويلة على الأقدام ، فبدءا على الفور ..

واتجه السير (ناتانييل) دون كلام إلى الشرق هابطًا التل ، وفى النهاية ، وجدا نفسيهما على حافة تل منحدر ، كان أقل ارتفاعًا من التل الذى كانت عليه القلعة ، وبين الصخور كانت أنواع شتى من الأشجار ، وبين الأشجار رأيا ما بدا فى ضوء النهار المبكر كأنه خرب .. كانت هذه الأخيرة من حجر رمادى ضخم ،

ربما هو حجر جيرى تم اقتطاعه دون براعة ، لو لم يكن قد شكلته يد الطبيعة ..

ونظر السير (ناتانييل) حوله ، وكانت الشمس قد تسلقت الأفق الشرقى وجعلت كل التفاصيل واضحة .. وكان (آدم) تلميذًا شديد الاهتمام والتعطش للعلم ، وحاول بحق ألا يفوته شىء مما يراه ..

ـ « قد جلبتك هاهنا يا (آدم) لأن هذه البقعة تبدو مناسبة لبدء بحثنا .. الآن ترى أمامك كل مملكة (مرشيا) القديمة .. بالواقع أنت تراها كلها ما عدا الأجزاء العميقة منها التى تغطيها المستنقعات ، ولسوف تجد أن كل هذا مهم جدًا حين نحاول فهم عادات وخرافات تلك المملكة القديمة ، والجانب المنطقى فيها .. وهذا سيعيننا على معرفة الحقيقة وراء كل أسطورة قديمة .. على سبيل المثال لسوف تجد أن الخامات المستعملة فى البناء وأشكال المبانى وارتفاعها فى كل عصر ، تقدم دروسها الخاصة .. فقط للعيون التى تفهم .. »

- « أعطنى مثالاً يا سيدى .. »

- « لنأخذها بالترتيب .. تأمل هذه إلى الشرق حيث الأشجار الواطئة .. كان هذا معبدًا رومانيًا ، ويبدو ذلك واضحًا من نصف اسمه ، بينما النصف الآخر يأتى من الأشجار ذاتها : (أيكة ديانا) .. التل الآخر يدعى (ميرسى) .. واضح أن هذا تحريف للفظة (ميرشيا) بوساطة الرومان .. لقد كان ديرًا أنشأته الملكة (بيرثا) ، حتى دمره الملك (بندا) الذى ارتد إلى الوثنية .. بعد هذا ترى قصر عمك (لسر هيل) »

- « بعد هذا تبقى القلعة .. »

- « تلك القلعة تحوى كل تاريخ إنجلترا القديمة .. ولا توجد نقطة بداية لتاريخها قدر ما نعلم .. فقط تقول أقدم الكتابات المعروفة إنها كانت هناك .. وقد وجدها الرومان حين جاءوا ، وتقبلوها كما هى ، بل واعتبروها من أهم الأماكن لمعسكراتهم .. فهى - كما ترى على الخارطة - تشرف على الساحل والمستنقعات الغربية التى تكمن وراءها (ويلز) البريّة ، وتقرب

الشرق والغرب بأيسر الطرق المعروفة فى ذلك العصر .. وهى - فى النهاية - تتيح الهبوط على لندن ، وكل جزء فى البلاد يرويه نهر (التيمز) ..

« وهكذا يمكن بسهولة أن نفهم أن كل موجة غزو جديدة - سواء كانت الإنجليز أو الساكسون(*) أو النورمان(**) - وجدت هذه القلعة مغنمًا مفيدًا . ولقد جلب الرومان معهم كل ما من شأنه أن يجعلها موقعًا حصينًا يتحدى جلّ أسلحة العصر .. وسرعان ما تحولت من معسكر حصين إلى قلعة الملك نفسه .. لقد كان الرومان بارعين فى احتفاظهم بالمواقع الجيدة الحصينة .. ولكن .. ما أسرع ما يمر الوقت ! يجب أن نعجل بالعودة حتى لا يقلق عمك بصدد ما حل بنا .. »

وبخطى سريعة اندفع نحو (لسر هيل) ، بينما راح (آدم) يركض كى يلحق به .

(*) الساكسون هم قبائل جرمانية ، كانت تعيش شمالى (ألمانيا) ، وغزت (إنجلترا) فى القرنين السابع والثامن الميلاديين .

(**) النورمان قبائل اسكندنافية ، كانت تعيش فى شمال فرنسا فى القرن العاشر الميلادى .

الفصل الرابع

رحلة الليدى آرابيلا

قال مستر (سالتون) وقد انتهى من طعام الإفطار:

ـ « لا داعى للعجلة ، لكن بما أن كليكما متأهب يمكننا البدء حالاً .. أريد أولاً أن أريكما أثرًا عظيمًا من أطلال (مرشيا) ، ثم بعد هذا نقصد (ليفربول) عبر ما يدعى وادى (شيشاير) العظيم .. لربما يخيب أملكما ، لكنى أقول لكما لا تتوقعا شيئًا خارقًا للعادة .. علينا أن نصل للميناء سريعًا لنلحق بالمستر (كاسوول) ، فمن الواجب أن ننهى عملية التعارف قبل أن نذهب إلى حفل الاستقبال فى القلعة .. »

وتم إعداد العربة تمامًا ، كما فى اليوم السابق ، وإن تم تزويدها بخيول جديدة .. خيول رائعة ، وتم تزويد

من يرشدون الحوذى بتعليماتهم ، ثم انطلقت العربة بسرعة هائلة .. وبناءً على تعليمات المستر (سالتون) مرت العربة جوار كومة ضخمة من الأحجار على جانب الطريق ..

قال :

ـ « هنا يا (آدم) شىء لا ينبغى أن نمر دون أن نلاحظه .. لقد تم تشييد هذه الكومة من الأحجار فى أواخر القرن السابع ـ قبل ألف عام ـ فى ذكرى إزهاق روح بشرية .. فهاهنا قتل (ولفير) ملك (مرشيا) ـ ابن أخى (بندا) ـ ولديه إذ اعتنقا المسيحية ، فقد ارتدّ الرجل إلى الوثنية بعد عهد القديس (أوجستين) ، وكما جرت العادة وقتها ، كان على كل مارّ أن يضع صخرة على هذه الكومة .. »

هنا لاحظا أن عربة أخرى من طراز عتيق تدنو منهم ، وأن راكبها ـ وكان وحيدًا ـ ينظر لهم فى فضول .. ونزع القوم قبعاتهم ، لأن الراكب كان سيدة توجه لهم الحديث :

ـ « كيف حالك يا سير (ناتانييل) ويا مستر (سالتون) ؟ أتعشم ألا تكونوا قد لاقيتم مشكلة ما .. انظروا لى ! »

قالتها وأشارت إلى إحدى يايات عربتها الضخمة .. كانت مهشمة ، وقد تبدى معدنها الأبيض اللامع .. فهتف (آدم) :

ـ « هذا لن يستغرق وقتاً فى إصلاحه .. »

ـ « كيف ؟ ما من أحد دان يمكنه إصلاح كسر كهذا .. »

« أنا أستطيع .. لقد جئت من أستراليا حيث نسافر بسرعة ، وحيث يتعلم الجميع أن يثبتوا حدوات الخيول ، وأن يصلحوا العربات بأنفسهم .. »

ـ حقًا لا أعرف كيف أشكرك ؟ فأنا راغبة فى مقابلة السيد (كاسوول) مالك (كاسترا ريجس) إذ يصل اليوم من إفريقيا .. لا بد أنك المستر (آدم سالتون) .. أنا (آرابيللا مارش) من (أيكة ديانا) .. »

واختلست نظرة إلى مستر (سالتون) الذى فهم الإشارة ، وقام بإجراء التعارف بشكل رسمى .. وبدأ (آدم) عملية إصلاح الياى المكسور .. كان بحق حرفيًا بارعًا وقد فرغ من العمل سريعًا .. لكنه إذ راح يجمع أدواته التى تناثرت على الأرض ، لاحظ أن ثعابين سوداء صغيرة تخرج من بين كومة الصخور وتحتشد حوله ..

كان عقله مشغولاً بهذا المشهد حين رأى ليدى (آرابيللا) تهبط من العربة بحركة ناعمة منزلقة ، وكانت بالفعل وسط الثعابين حين ناداها منذرًا .. لكنه لاحظ أن الثعابين تراجعت للوراء واختفت على الفور .. برغم هذا راح يدق على الأرض بعصا كانت معه ، وهى حركة غريزية يتبعها مع تلك الزواحف .. كان الآن واقفًا مع المرأة ـ التى لم تعر المشهد اهتمامًا ـ جوار كومة الصخور .. اختلس نظرة طويلة لها ، فكان ثوبها كافيًا لشد انتباهه .. إنه أبيض طويل ملتصق بجسدها النحيل المتلوى ،

وكانت ترتدى رابطة عنق من فراء أبيض ، وحول عنقها قلادة من الزمرد تعمى العيون ، إذ تلتمع عليها الشمس .. ولها صوت ناعم خفيض كالفحيح .. وكانت يداها طويلتين دقيقتين شديدتى المرونة ..

شكرت (آدم) كثيرًا وقالت : إنها ليسعدها الذهاب معهم إلى (ليفربول) لو رغبوا فى هذا ..

ـ « أرجو أن تعتبر أراضى (أيكة ديانا) أرضك الخاصة يا مستر (آدم) .. هناك مناظر جميلة ، وغرائب طبيعية عديدة ـ منذ كان التاريخ طفلاً ـ لا بد أن تروق لك .. »

لكن (آدم) شعر بشىء من الشك فى طريقتها ، التى برغم دفء كلماتها كانت متنائية باردة .. وإذ اعتذر عمه وصديقه عن الدعوة ، أدرك (آدم) أن المرأة سعيدة برغم ما أظهرته من حسرة ..

ركب العربة مع عمه ، ولم يدهشه أن السير (ناثانييل) تكلم على الفور :

ـ « من الواضح تماماً أنها سعيدة بالخلاص منا .. يمكنها الآن أن تلعب لعبتها وحدها !! »



لكنه لاحظ أن الثعابين تراجعت للوراء واختفت على الفور .. برغم هذا راح يدق على الأرض بعصا كانت معه ..

- « وما هى لعبتها ؟ »

- « كل الريف هنا يعرفها يا بنى .. إن (كاسوول) فاحش الثراء .. وكان زوج (آرابيلا) ثريًا - كما حسبت هى - إلى أن انتحر ، عندها عرفت أنه لا يملك شيئًا .. وأملها الوحيد الآن للاحتفاظ بالضيعة هو رجل ثرى تتزوجه .. ولن أقدم استنتاجات فأنت قادر على استخلاص استنتاجاتك الخاصة .. »

لزم (آدم) الصمت طيلة ما بقى من الرحلة ، كان غارقًا فى التفكير ، وقد أزمع ألا يولى أى اهتمام بالليدى (آرابيلا) فى المستقبل .. فقد كان هو نفسه فاحش الثراء .. ثريًا إلى الحد الذى لم يخطر حتى ببال عمه قط ..

لم يحدث شىء ذو بال باقى الرحلة ، وفى النهاية صعدوا إلى السفينة (وست أفريكان) التى وصلت حالاً إلى المرفأ .. وبعد التعارف رحب بهم (كاسوول) بحرارة ، وقال إن العودة لموطن أجداده بعد كل هذه السنين أمر عظيم .. ولم يستطع (آدم) قط أن يتجاهل شعوراً ما بالنفور من مرأى وجه الرجل ..

كان منهمكًا فى هذا حين وصلت ليدى (آرابيلا) ، وقد ساعد هذا على إبعاد اهتمام الرجل عنهم .. كانوا قد صدموا لرؤية وجهه القاسى الأنانى المسيطر .. وخطر لهم خاطر واحد هو : فليعُن اللّه أى شخص يقع تحت سيطرة هذا الرجل !

وحين بدأ يتحدث إلى خادمه الإفريقى (أولانجا) ، بدا لهم الأخير متوحشًا ، لم تهذبه الحضارة قط .. كأنه طفل الغابة الذى ضاع من آله .. وأدنى المخلوقات الشبيهة بالإنسان شأنًا ..

وراقب (آدم) سلوك ليدى (آرابيلا) مع (أولانجا) ، فوجد تعاليًا صفيقًا من جانبها ، وتدنيًا صارخًا من جانبه .. لم يكن (أولانجا) ليعاملها كعبد مع سيده ، ولكن كوثنى مع صنمه .. ركع أمامها ومرغ رأسه فى الغبار ولم يتحرك .. ولم يسترخ حتى نهضت من أمامه ..

فى الآن ذاته كان (آدم) يسأل مضيف السفينة عن شىء ما ، فسأله عمه عما يريد .. قال :

ـ « كنت أسأل يا سيدى عن (روس) تاجر الحيوانات الشهير .. فأنا راغب فى شراء حيوان صغير أصطحبه للبيت لو لم يضايقك هذا .. إنه صغير ولن يسبب متاعب .. »

ـ « طبعًا يا بنى .. ولكن أى حيوان هو ؟ »

ـ « مانجوست !! »

ـ « مانجوست ؟ لماذا بالله عليك تحتاج إلى واحد ؟»

ـ « من أجل قتل الثعابين .. »

ـ « حسن !! »

وتذكر الرجل جبل الثعابين ، فهز رأسه مؤمنًا على الفكرة .. وجاء (روس) ليقول :

ـ « إن لدى حيوان (مانجوست) جئت به من (نيبال) حالاً .. لقد افترس كوبرا هائلة وجدوها فى حديقة الراجا .. وإن كنت لا أظن أنك تحتاج إلى شىء كهذا فى مناخنا البارد . »

ـ « آه ! لا حاجة لى بهذا الحيوان البارع .. أظن أننى بحاجة إلى (مانجوست) عادى .. »

فلما رأى (ناتانييل) ما يحمله (آدم) فى قفص ، ضحك كثيراً وقال :

ـ « لقد سمعت الليدى تدعوك إلى (أيكة ديانا) .. هل سبق لك أن سمعت الاسم الذى كان يطلق قديمًا على هذا المكان ؟ »

« لا يا سيدى ..»

« إنه .. ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى حديث طويل .. ربما كان من الأحكم أن نتكلم فيه فيما بعد حين نكون منفردين .. »

كان الفضول يمزق (آدم) ، لكنه وجد من الحكمة ألا يتعجل الأمور .. سيجىء كل شىء فى وقته المناسب .. وعاد الثلاثة الرجال تاركين المستر (كاسوول) يمضى أمسيته فى (ليفربول) ..

وفى اليوم التالى اتجه الثلاثة إلى (كاسترا ريجس) لحضور حفل الاستقبال ..

كان المكان مزدحمًا بالضيوف ، وقد تم إعداد أماكن متميزة لذوى الأهمية الخاصة .. وفتش (آدم) عن الليدى (آرابيللا) فلم يجدها فى مرمى بصره .. ثم سمع التهليل والصياح ؛ فأدرك أن (إدجار كاسوول) قد وصل أخيرًا .. وإذ دقق البصر وجد أن الليدى تجلس بجواره فى العربة ، وقد ارتدت نفس ثياب أمس ..

وأدرك الجميع أنها ستكون الضيف الأساسى فى الاحتفالات ..

تلا هذا بعض الخطب التى لحسن الحظ لم تكن طويلة أو عديدة .. وراح (كاسوول) يمشى ما بين ضيوفه مرحبًا متحدثًا مع الجميع فى مودة .. ونظرًا لوسامة (آدم) وكونه غريبًا فإنه أثار دائرة من الفضول حول نفسه ، خاصة من الفتيات المدعوات .

وحقًا كانت هناك حسناوات كثيرات فى الحفل .. لكن هذا لم يثر اهتمامه كثيرًا .. إلى أن التقى بمجموعة من ثلاثة من الواضح أنهم من طبقة الفلاحين ..

أحدهم وهو الرجل كان عجوزًا قوى البنية ، معه فتاتان حسنتا المظهر .. إحداهما جاوزت العشرين من العمر ، والأخرى أصغر سنًا .. فلم يكد (آدم) يرى أقربهما ؛ حتى توهجت فيه تلكم الشرارة الكهربية المقدسة ، التى تبدأ بالتعارف وتنتهى بالطاعة العمياء ، والتى يسمونها بـ (الحب) ..

ولاحظ مرافقه اهتمامه الذى لم يخفه فقال :

ـ « تراك لاحظت هؤلاء ؟ أما العجوز فمستر (مايكل واتفورد) .. واحد من مستأجرى مستر (كاسوول) ، ويقيم فى مزرعة (ميرسى) .. والفتاتان حفيدتاه .. كبراهما هى (ليلا) الابنة الوحيدة لأكبر أبنائه .. فتاة طيبة .. طيبة بقدر ما هى حسناء .. والأخرى هى ابنة عمها .. وكان أبوها جنديًا سافر إلى (بورما) وسرعان ما عرف أبوه أن (الداكويت) قتلوه ..[*]

(★) الداكويت : جماعة من قطاع الطرق فى الهند وبورما ، اعتادت الهجوم باستعمال الخيول .

« .. وعرف الرجل أن ابنه قد تزوج من فتاة بورمية ، وأن له منها ابنة عمرها حينئذ عام واحد وكان اسمها (ميمى) .. فجلبها لداره ورباها مع (ليلا) ، وهامت الفتاتان ببعضهما ..

« شد ما تختلف الفتاتان ! إن (ليلا) شقراء تماماً كقدامى الساكسون الذين نشأت منهم .. أما (ميمى) فبها جذور من أمها .. (ليلا) رقيقة كاليمامة ، بينما عينا (ميمى) تتوهجان حين تغضب .. وهى لا تغضب إلا لو حدث ما يؤذى (ليلا) .. عندها تتصرف (ميمى) كأنثى القط حين يتهدد خطر صغارها .. »

* * *

الفصل الخامس

الدودة البيضاء

قدم مستر (سالتون) (آدم) إلى مستر (واتفورد) وحفيدتيه ، وسرعان ما انضما إليهم .. وكان الجيران بالطبع يعرفون كل شىء عن (آدم سالتون) وظروفه ، ولذا لم يكن غريباً أن تحلم الفتاتان بالمستقبل .. كان من طراز فريد ، ومن طبقة لا تمثل لها فوارق الطبقات شيئاً مذكوراً .. وبدا من اللحظة الأولى أنه يميل لصحبة (ميمى واتفورد) ..

وعندما قرعت الأجراس للمأدبة اتجه معها للخيمة التى كان جدها فيها ، ولاحظ مستر (سالتون) وسير (ناتانييل) أن الفتى لم يقصد مقعده المخصص له فى المنصة الرئيسية ، ففهما ، ولم يظهرا ما ينم عن الملاحظة ..

جلست ليدى (آرابيلا) عن يمين (إدجار كاسوول) .. وأدرك الجميع أنها المرشحة رقم واحد لتشارك الوريث حياته .. لم يقل أحد حرفًا ، لكن ليست الكلمات ضرورية دائمًا حين تلعب النظرات الدور ذاته ..

كان هناك قليلون قد وضعوا هذه المرأة فى المرتبة الثانية بعد (ليلا واتفورد) .. لكن الفارق كان شاسعًا بين المرأتين ، إذ تمثل ليدى (آرابيلا) الأرستقراطية بينما تمثل (ليلا واتفورد) جمال عامة الشعب ..

وعاد الرجال إلى دارهم مع الغسق .. وقبل العشاء بدا (آدم) مهمومًا إلى حد ما .. لهذا ـ بحكمة السنين ـ آثر الرجلان الآخران الصمت وانتظرا أن يتكلم بنفسه عما يضايقه .. ولم يطل انتظارهما لأنه انفجر فجأة :

ـ « ذلك الرجل يحسب نفسه قد ملك الأرض ! يحسب أن كل ما عليه هو أن يرمى بمنديله لأية امرأة وما عليها إلا أن تقبل ! »

كان هذا كافيًا للفهم .. لهذا سأله (ناتانييل) بحكمة الدبلوماسى العجوز الذى يفهم خبايا الأمور ، وبشكل عارض :

ـ « هل يحاول الإيقاع بـ (ليلا) ؟ »

ـ « نعم .. ولم يحاول أن يضيع وقته كذلك .. لقد ظل يتملقها ، ثم دعا نفسه إلى الشاى فى دارها غدًا .. يا للحمار الغبى ! ألا يفهم أن الفتاة ليست من طرازه ، وأن الأمر يبدو كالصقر واليمامة ؟ المشكلة هى أنه كان متحضرًا جدًا ولا غبار على سلوكه .. تصرف بالتهذيب المتوقع من صاحب أملاك نحو ابنة مستأجر لديه .. لكن .. لكن .. لا أعرف كيف أعبّر ، لكن الدم قد غلى فى عروقى ! »

ـ « هكذا !! »

ـ « ربما هى تلك السحنة الرومانية القديمة التى نفرتنى منه .. لكنى شعرت أن الفتاة فى خطر وأننى راغب فى حمايتها .. »

ـ « فى الواقع كل الشباب أمثالك يشكلون خطرًا عليها ، ولقد لمحت الطريقة التى كنت ترمقها بها .. بدا لى أنك توشك على امتصاصها من الوجود ! »

ثم جاء الخدم بالعشاء ، فدعا السير (ناتانييل) الفتى أن يصمت .. وبعد العشاء جلسوا يلتهمون الجوز ويثرثرون ، وهنا قال الفتى :

- « يسرنى الآن أن أسمع المزيد من الأساطير القديمة هنا .. ودعونا من (إدجار كاسوول) فلربما قابلته غدًا لأنه ذاهب للمزرعة - كما قلت - فى الثالثة بعد الظهر ، أما أنا فموعدى فى الثانية .. »

- « أنت أيضاً لا تضيع الكثير من الوقت .. »

وخشى (ناتانييل) أن يفقد اهتمام محدثه بتأجيل السرد ، فقال :

- « لا أنوى أن أقص عليك كل أساطير (مرشيا) .. لسوف يكون من الأفضل أن أقص عليك ما يتعلق منها بهذه الجيرة .. ولنبدأ بـ (أيكة ديانا) .. لقد وجدنا فى وثائق (الساكسون) أن المكان كان يحمل اسمًا آخر غير (أيكة ديانا) واضح أنه رومانى ، أو إغريقى تم قبوله كرومانى .. وهذا الاسم الآخر معناه (عرين الدودة البيضاء) ، ولفهم سر هذه التسمية لا بد لنا من وقفة ..

« فى فجر اللغة ، كانت لفظة (دودة) تختلف عن استعمالنا الحالى لها .. كانت Wyrm فى اللغة الأنجلوساكسونية تعنى (أفعى) أو (تنين) ، وفى القوطية Waurms بمعنى (أفعوان) ، وكذا فى الأيسلندية Ormur ونفهم من هذا أنها كانت تعنى دومًا - على نقيض مفهومنا الحالى لها - مزيجًا من القوة والضخامة .. ولسوف نجد فى الأساطير أن الدودة كانت أقرب إلى تنين عاتى القوة .. ومن يعرف تاريخ إنجلترا جيدًا لا يستطيع بسهولة استبعاد فكرة وجود مخلوقات بهذا الحجم فى عصور جيولوجية معينة .. إننا نرى من هنا ثقوبًا فى الوحل يصل عمقها إلى مئات الأقدام .. فماذا كان فيها ؟ ومتى انتهت حياة المخلوقات التى عاشت بداخلها ؟ حتى فى زمننا هذا مازلنا نرى الحفائر القديمة لحيوانات لا تُصدَق فى حجمها وضخامتها .. »

- « لا أنكر هذا الاحتمال يا سيدى ، لكن وحشنا هذا لو وجد لكان ثقيلاً جدًا ، وحركته عسيرة ، ومن

الصعب أن يصل إلى مثل هذه الحفر العميقة التى نراها من هنا ، دون أن يلاحظه شاهد عيان .. طبعًا لدينا الأساطير ، لكنها كالعادة لا تشفى غليلاً . »

- « يا عزيزى (آدم) .. إن كل ما تقول صواب .. لكن لا تنس أن هذا حدث من آلاف السنين .. ومن العسير أن تجد سجلات لهذه الفترة .. ولا بد أن عرين وحش كهذا لم ير إزعاجًا بشريًا لقرون طوال .. فليس بوسعنا أن نجد دليلاً إلا فى علم الجيولوجيا ، وفى إدراكنا المنطقى لقوانين الحياة .. »

★ ★ ★

الفصل السادس

الصقر و اليمامة

وعلى مائدة الإفطار فى اليوم التالى دخل (آدم) على عمه وصديقه ، فتساءل العم :

- « هل من أخبار ؟ »

- « أربعة ! »

- « أربعة ماذا ؟ »

- « أربعة ثعابين .. لقد ظفر بها المانجوست »

- « أربعة ثعابين ؟! كيف لم أدر من قبل أنها بهذه الكثرة ؟ كيف كان حجمها ؟ »

« صغيرة جدًا لا تتجاوز طول العصا .. »

« حسن .. المهم أن نتخلص منها ، ولا يهمنى بعد ذلك حجمها .. لا بد أنه حيوان طيب ذلك المانجوست .. »

واصل (آدم) التهام إفطاره بشهية طيبة ، لأن قتل الثعابين قبل الإفطار لم تكن خبرة جديدةً عليه .. بعد الإفطار اتجه إلى المكتب الذى خصصه عمه له ، ولم يظهر ثانية إلا بعد ما عاد من الدعوة التى تلقاها أمس .. الدعوة إلى مزرعة (ميرسى) حيث الفتاتان..

بعد صمت قال فى شىء من حياء :

ـ « حسن .. لا جدوى من الانتظار أكثر .. لا بد من عمل هذا .. »

ـ « عمل أى شىء ؟ »

ـ « زيارتى لمزرعة ميرسى »

ابتسم عمه والسير (ناتانييل) فى فهم ، فقال :

ـ « تعرفان أننى كنت أمس مهتمًا بآل (واتفورد) .. وقد رأيت أن تعرفا هذا .. أنت يا عمى لأنك قريبى وآخر سلالتى ، ثم إنك غمرتنى بكرم لا يمنحه إلا أب .. وأنت يا سيدى لأنك أريتنى فى مسقط رأسى ما كانت أشد أحلامى جموحًا تعجز عن تصوره .. »

ثم صمت هنيهةً وقد بلغ به التأثر مداه .. قال سير (ناتانييل) واضعًا يده على كتفه :

ـ « إن قلوبنا ليغمرها الدفء إذ نسمع كلمات كهذه يا ولدى .. »

عندها راح (آدم) يتكلم فى عجلة ، كأنما يرغب فى الوصول لغرضه سريعًا :

ـ « لم يكن مستر (واتفورد) هناك ، لكن الفتاتين أكرمتا وفادتى ، وبدا واضحًا حبهما لعمى .. وكنا نشرب الشاى حين وصل (كاسوول) مع عبده الأسود .. وفتحت له (ليلا) الباب بنفسها .. قال إنه راغب فى معرفة المستأجرين بشكل أكثر مودة وأقل رسمية مما كان ممكنًا أمس .. كانتا فتاتين لطيفتين بحق ، ولسوف ينعم شخص ما بسعادة بالغة مع واحدة منهما يا سيدى .. »

« وهذا الرجل هو أنت يا (آدم) »

طافت نظرة حزن على وجه الفتى فأطفأت النيران التى توهجت فى عينيه ..

- « هذا يتوج حياتى .. لكن سعادة كهذه ليست لى من دون ألم و عناء وخسارة .. لكن لو أحسَ المرء بما شعرت به أمس حين رأيت عينىَ (ميمى) ، فلن يحتاج إلى تعلم الأشياء .. سيعرفها على الفور .. »

وساد الغرفة صمت لم يقطعه إلا (آدم) :

« عماه .. هل يملك أحد فى أسرتنا موهبة العرافة ؟ »

- « على قدر علمى يا بنىَ .. لا . »

- « لكن هناك ما يسمونه بالقدر المحتوم .. القضاء .. الحكم الذى لا استئناف فيه .. كنت أسمع طيلة حياتى عن العرافة ، لكنى لم أدرك معناها بحق إلا اليوم .. شعرت بأن ما بينى وحبيبتى جدار شامخ من جرانيت ينطح السحاب ولا يمكن تجاوزه .. ولسوف أحاول جاهداً ما سيحاوله أى رجل آخر .. أكافح .. ستكون هناك معركةً ما .. لا أدرى متى ولا كيف .. لكن ماذا يستطيع الإنسان فى ظروف كهذه ؟ »

بصوت رقيق رفيق دعاه المستر (سالتون) كى يواصل سرد ما حدث فى اللقاء ، فقال (آدم) :

- « حين وصل المستر (كاسوول) ؛ ابتعد العبد قليلاً ، لكنه بقى فى مرمى النظر والنداء .. وأعدت (ميمى) لنا المزيد من الشاى »

سأله المستر (سالتون) مدققًا :

- « هل كان ثمة شىء غير عادى .. أو مثيرًا للانتباه ؟ »

- « بل كان الجو شديد المودة .. لم ألحظ سوى ..

« وصمت ثم استطرد بنبرة أغلظ : »

- « سوى أنه كان يبقى عينيه على (ليلا) بطريقة مزعجة بالتأكيد .. لم يكن هناك ما يشين فى طريقة النظر ذاتها .. لكن ما من أحد يملك إلا ينزعج منها .. لقد لاحظتها (ميمى) ، واشتعل وجهها غضبًا .. لم تكن تلك نظرة معجب أو عاشق .. لم تكن نظرة غرام .. ولو كانت لما ضايقنى هذا

كثيرًا .. أنا قد تعلمت أن أكون عادلاً مع منافسىَ وأن أعاملهم بالشرف الذى أطالبهم به .. لكن النظرة كانت ...... هل تأملت فى حياتك عينىَ كلب صيد ؟ أو عينىَ طائر جارح يقفو أثر فريسته ؟ هذه هى النظرة التى أعنيها هنا .. مخيفة كالتهديد ذاته .. »

من جديد ساد الصمت الذى قطعه سير (ناتانييل) قائلاً :

- « ربما كان من الخير أن نمعن التفكير فى هذا ، ثم نناقش الموضوع من جديد .. »

* * *

الفصل السابع

أولانجا

فى السادسة مساءً اتجه المستر (سالتون) إلى (ليفربول) للحاق بموعد ؛ عندها أمسك (ناتانييل) بذراع (آدم) وقال :

- « هل لى أن أفاتحك بموضوع ما فى مكتبك ؟ فلست راغبًا فى أن يسمع عمك شيئًا عنه ، وهو يتعلق بشدة بما نحن فيه .. »

- « هل لا بد من استبعاد عمى ؟ لربما ضايقه هذا .. »

- « ليس ضروريًا لكنه مرغوب فيه .. إنه شيخ وقد يضايقه ما سأقول .. لكنى أعدك أنه ما من شىء فى صمتنا يثير امتعاضه أو يضايقه .. »

- « استمر يا سيدى .. »

- « إن عمك شيخ لا يتحمل كل ما هو جديد ، كأكثر الشيوخ .. أعرف هذا لأننا نشأنا معًا .. وأعرف أن ما سأقوله لك كفيل بأن يثير حفيظته .. ثمة أمور غامضة مريبة فى كل تلك الأحداث التى جرت فى مقابلتك ، وعلينا أن نعمل جاهدين وبصبر ، كى نصل إلى نهاية نراها مناسبة .. صف لى بدقة ما قالت وفعلت (ميمى) ، وما فعل الخادم الزنجى (أولانجا) ..»

- « سأحاول التذكر يا سيدى .. كان (كاسوول) يتكلم وعيناه ثابتتان طيلة الوقت على (ليلا) ؛ لكن لم يبدُ لى أنه فى سنه .. كان جبينه مجعدًا كمن يحاول اختراق حجاب ما .. أحيانًا كان وجهه يتخذ طابعًا شيطانيًا مريعًا .. ولقد شحبت (ليلا) البائسة ، وبدت كمن يوشك على فقدان الوعى ، ثم جاءت (ميمى) وأمسكت بيدها .. لكن الرجل واصل حملقته ، وفى النهاية فردت الفتاة ذراعيها وأغشى عليها .. ثم إن الزنجى وقف بيننا ، وقد بدا كشيطان رجيم .. لست رجلاً صبورًا ، لكن مرأى هذا الرجل فى هذه اللحظة جعل دمى يغلى .. حين رأى وجهى بدا كأنما استشعر

الخطر ، وغادر الغرفة كما جاء .. لقد تعلمت على الأقل شيئًا ، هو أن هذا الزنجى عدو لى ..

« ثم إن (كاسوول) غادر الغرفة بنفس الطريقة التى غادرها الزنجى بها ، واستعادت (ليلا) رشدها ..

« أعرف أن هناك متاعب ستنجم عن هذا الزنجى.. لقد سمعت الكثير عن هذا الرجل .. إن (دافنبورت) سكرتيرى الخاص مخلص لى بشدة ، وقد طلبت منه أن يبقى على ظهر السفينة (وست أفريكان) ، ويعرف ما يستطيع معرفته عن (كاسوول) .. ولقد أثار الزنجى دهشته ، وعرف عنه الكثير من أحد مضيفى السفينة .. يبدو أن (أولانجا) هذا عظيم الشأن وسط قومه من زنوج الساحل الغربى لإفريقيا .. إن القوم يخشونه ويحبون سخاءه .. لقد كان رجلاً (أوبيًا)(*)

(*) أوبى : ديانة قديمة كانت تمارس فى غرب إفريقيا ، ولها علاقة قوية بالـ (فودو) ، الذى يمارس اليوم فى (الكاريبى) ، ولفظة (أوبى) الإفريقية عامة ، تعنى إخفاء السحر فى الرمال بغرض الإيذاء .

مما أتاح له الإثراء عن سبيل الابتزاز .. ثم غدا من سحرة الـ (فودوو) العظام ، ومن الواضح أن هذا ضرب من أحط وأحقر أنواع السحر .. يقول البحارة إنه يهوى جمع الطُرف .. ويا لها من مجموعة !! كل ما يصلح للشر فى الطير والحيوان والوحوش ، وكل ما خُلق ليمزق أو يدمى أو يعذب .. إنها مجموعة تثير الهلع فى قلب أعتى الرجال .. »

★ ★ ★

صحا (آدم) مبكرًا فراح يتنزه فى المنطقة .. دنا من (أيكة ديانا) ، فرأى تلكم الثعابين التى فتك بها المانجوست أمس ، وقد تراصت فى صف طويل ، كأنما يد قد رتبتها هناك .. كانت جلودها لزجة غطاها النمل ، مما جعل منظرها مقززًا أغراه بالابتعاد ..

بعد قليل ـ بينما كان يمشى قرب مزرعة (ميرسى) ـ رأى الزنجى يتحرك فى ظلال الأشجار، وفى يده بعض الثعابين بشعة المظهر ، يحملها كمناشف متسخة معلّقة .. ولم يبدُ أنه لاحظ (آدم) .. وانتظر الفتى

بعض الوقت على أمل أن يرى (ميمى) لكنها لم تظهر من ثم عاد إلى داره ..

أخذ (آدم) حيوان (المانجوست) عازمًا على أن يعود إلى كومة الأحجار ، ليواصل ما قام به أمس من إبادة الثعابين التى بها .. وكان الحيوان قد اعتاده الآن وصار ودودًا ، حتى إنه تركه يحمله على كتفه كهريرة لعوب ..

من جديد قابل وجهًا آخر هو ليدى (آرابيللا) التى كانت تجد السير غاضبة ، مسرعة حتى إنها مرت به ولم تلحظ انحناءته لها ..

كان الحيوان هادئًا حتى هذه اللحظة ، فما إن دنا من المرأة حتى بلغ به الغضب والهياج حدًا مريعًا .. وثب من فوق ظهر (آدم) جاريًا نحو ليدى (آرابيللا) .. فبدا الامتعاض على وجهها .. وهرع (آدم) بعصاه ، لكن قبل أن يدنو بقدر كاف ؛ كانت المرأة قد أخرجت مسدسًا وأفرغت رصاصة فى الحيوان ..

وكأنما لم تقتنع بهذا ، أفرغت فيه طلقة تلو طلقة حتى انتهت خزانتها ..هذه المرّة لم تكن باردة ، بل بدت أكثر شراسة من الحيوان ذاته ، وعلى وجهها كل أمارات المقت ..

لم يدر (آدم) ما يقول أو يفعل ، فولى الأدبار نحو (لسر هيل)

★ ★ ★

الفصل الثامن

شئون الحياة

فى ساعة الإفطار لاحظ السير (ناتانييل) أن (آدم) مهموم شارد الفكر .. لكنه آثر ألا يتكلم لأن درس الصمت لا ينساه الشيوخ أبدًا .. وبعد الإفطار حكى له (آدم) كل ما كان أمس ، فبدا قلق جمّ على وجه الرجل .. وراح يدخن وهو يفكر بعمق :

ـ « دعنا نناقش الأمر بالترتيب .. أولاً هناك المانجوست وهو حيوان لطيف ، لم يؤذ سوى الثعابين حتى هذه اللحظة ـ وهى مهمته فى الحياة ـ ولم يبدُ منه ما ينمّ عن شراسة .. فلماذا قرر فجأة أن يهاجم الليدى (آرابيلا) ؟ »

ـ « ربما لم يوهب المخلوق القدرة على تمييز من يهاجم .. »

ـ « ربما .. لكن هذا الحيوان لم يهاجم إلا عدوًا واحدًا طيلة قرون .. فهل لنا أن نفترض حين يهاجم حيوانًا غير مصنف لدينا ؛ أن يكون هذا الحيوان يمت بصلة ما لعدوه القديم ؟ »

ـ « هذا منطق جيد يا سيدى لكنه خطر .. ألا يقودنا هذا لاستنتاج أن ليدى (آرابيللا) هى فى الحقيقة ثعبان ؟ »

ـ « قبل أن نصل لاستنتاج عجيب كهذا ؛ علينا أن نستبعد وجود عامل فيزيائى ما .. لو كانت المرأة لها ـ مثلاً ـ رائحة الثعابين فإن هذا يبرر الهجوم بشكل منطقى .. »

ـ « هذا جائز .. لكن اسمح لى يا سيدى بأن أطرق بعض المواضيع التاريخية أولاً .. »

هز السير (ناتانييل) رأسه مرحبًا ، فقال الفتى :

ـ « لقد تكلمنا عن (أيكة ديانا) و(كاسترا ريجيس) و .. و .. ، هل من مكان هاهنا لا يحمل طابعًا شريرًا ؟ على سبيل المثال مزرعة (ميرسى) ؟»

ـ « هذا سؤال مهم .. لقد جاء القديس (أوجستين) إلى إنجلترا فى عصر الرومان ليحارب الوثنية ، وقد استقبله وحماه (إيثلبيرت) ملك (كنت) ، الذى بنت زوجته ديرًا للراهبات .. وكان اسم هذا الدير هو (سيدس ميسريكورديو) ـ بيت الرحمة ـ وقد امتزج الاسم سريعًا باسم (مرشيا) ليتحول إلى (ميرسى) ..

« وازدهر الدير لقرن كامل حتى جاء (بندا) الذى ارتدَّ إلى الوثنية ، وأحاله إلى أنقاض .. لكن ما زالت مزرعة (ميرسى) تحمل الاسم وروح ذلك المكان بعد قرون طالت .. »

* * *

بعد الغداء ، اقترح (آدم) على السير (ناتانييل) أن يجوّل معه قليلاً ، وفهم الرجل سريعًا بحنكة الدبلوماسى أن هناك ما يريد الفتى مفاتحته به ..

فما إن صارا وحيدين ، حتى قال (آدم):

ـ « أخشى يا سيدى أن هناك فى الجيرة ما يجهل الناس عنه كل شىء هنا .. لقد خرجت اليوم إلى

حدود الغابة ، فوجدت جسد طفلة ملقى جوار الطريق .. حسبتها ميتة وتفحصت عنقها ، فوجدت على عنقها آثارًا ما بدت لى كأسنان .. »

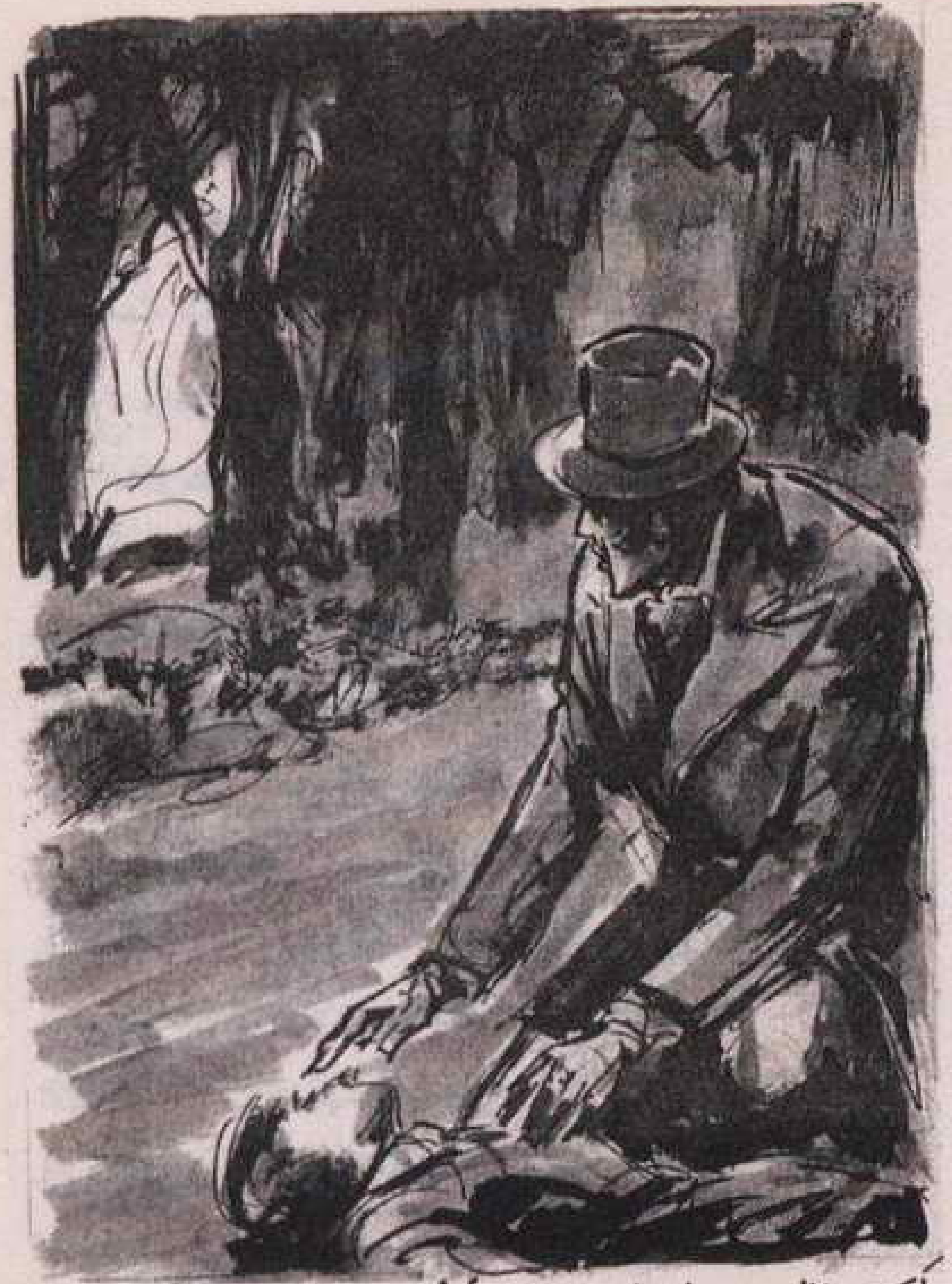
- « ربما كلب مسعور ؟ »

- « ربما يا سيدى .. لكننى نظرت حولى فوجدت شيئًا أبيض يتوارى بين الأشجار .. لم ألحق به فواصلت فحص الفتاة ، ولسرورى وجدت أنها حية .. وحين أفاقت قالت - لخيبة أملى - إنها لا تذكر إلا أن شيئًا قد خرج من الأحراش وباغتها معتصرًا حنجرتها .. »

- « وباغتها معتصرًا حنجرتها ! إذن لم يكن كلبًا .. »

- « ولعلك لاحظت يا سيدى المسار المتلوى الذى تتحرك به ليدى (آرابيللا) .. حسن .. ثمة ما يدعونى للشعور أن الشىء الأبيض الذى رأيته يتوارى ، هو سيدة (أيكة ديانا) ذاتها ! »

- « يا إلهى الرحيم !! خذ الحذر فيما تقول يا بنى .. »



لكننى نظرت حولى فوجدت شيئًا أبيض يتوارى بين الأشجار .. لم ألحق به فواصلت فحص الفتاة ..

ـ « نعم يا سيدى .. أعرف جيدًا خطورة ما أقول .. لكنى واثق من أن العضّة فى عنق الفتاة أحدثها إنسان لا حيوان .. »

صمت العجوز برهة ثم قال بعد تفكير :

ـ « لعمر اللَّه هذه مسألة خطيرة يا بنىَّ العزيز .. ولقد صارحنى عمك بأن كثيرين قد اختفوا بلا تفسير فى هذه البقاع .. وأن حيوانات كثيرة وجدوها جريحة أو ميتة فوق الكلأ .. ولا أكتمك سرًّا أننى اشتبهت فى ليدى (آرابيللا) كثيرًا ، لهذا سألتك عن حيوان المانجوست وعن نظرتها إذ رأته .. لماذا اشتبهت فى امرأة مثلها جميلة كريمة ؟ لقد عرفت أسرتها طويلاً ، وفى طفولتها ضلت الطريق ودخلت دغلاً قرب دارها .. وجدوها فاقدة الوعى محمومة ، وقال الأطباء إن فى بدنها عضّة سامّة ، وإن من العسير أن تشفى .. لكن الفتاة شفيت فجأة وبطريقة مذهلة .. لكن ـ لذعر أهلها ـ بدأت تكتسب قسوة غير عادية وولعاً بإيذاء المخلوقات الصغيرة ..

« حسب الكلّ أن زواجها من الكابتن (مارش) سيشفيها ، لكن هذا لم يحدث حتى وُجد الرجل وطلقة رصاص فى رأسه .. لم يكن هناك مسدس ، لكن الانتحار كان هو ما حسبه الجميع ..

ـ « هذا يضع الحقائق جوار بعضها .. ويمكن القول إن الدودة البيضاء قد استحوذت على روحها وجسدها معًا .. ويعلم اللَّه وحده ما اكتشفه الكابتن (مارش) من هول ، حتى قرر إنهاء حياته بنفسه ..

ـ « ليس بوسعنا عمل شىء يا بنىَّ سوى الانتظار والحذر .. »

هز (آدم) رأسه موافقًا وعاد الرجلان إلى (لسر هيل) .

★ ★ ★

الفصل التاسع

رائحة الموت

قرر (آدم) أن يوفد (دافنبورت) إلى (ليفربول) ، ليعرف ما بوسعه عن الخادم الزنجى (أولانجا) .. ويرتب قدومه إلى داره ، حيث يحاول إقناعه أو رشوته ، ليعرف منه المزيد عن أفكار الفودو وأساليبه ، عله يقوده إلى شىء مفيد .. وكان على (دافنبورت) كذلك أن يبتاع حيوان مانجوست آخر .. وقرر (آدم) أن يبرز (دافنبورت) تمامًا فى الصورة ويتوارى هو ، حتى تصل الأمور إلى نقطة تتطلب تدخله ..

وعرف (آدم) أن للزنجى موهبة خاصة هى - لو كان صادقًا - أنه يشمّ رائحة الموت .. يعرف بسهولة تامة ما إذا كان هناك موتى فى أى مكان يقصده .. وهى موهبة أحسّ (آدم) بنفعها ، وقرر

أن يجعل الرجل يمشى مع (دافنبورت) فى أماكن بعينها ..

وفى اليوم التالى وصل صندوقان من (روس) ، أحدهما يحوى مانجوستًا جديدًا ، والآخر به المانجوست بعينه الذى قتل الكوبرا الملك فى (نيبال) .. وهنا فقط أحسّ (آدم) براحة ..

ومضت الأحداث كما قدّر لها (آدم) .. لقد توقف الزنجى عند (أيكة ديانا) و(كاسترا ريجيس) ومزرعة (ميرسى) ، واتسعت فتحتا أنفه كأنما يتشمم ، وقال إنه يشم رياح الموت ، وبدا عليه إجلال شديد ، مع تهيب واضح ، عندما كان فى (أيكة ديانا) بالذات ..

عاد (آدم) إلى (لسر هيل) راضيًا وقد شعر بالراحة ، وفى مكتبه دخل عليه سير (ناتانييل) ، فراح الأخير يسأله عن آخر أخباره ثم قال :

- « بالمناسبة .. نسيت أن أقول لك شيئًا مهمًا :

« ثمة فى تاريخ آل (كاسوول) مايدعونى للاعتقاد بأنهم يملكون منذ دهر سحيق قوى منوِّمة ما .. لا بد أن عينا خبيرة فى فنون الفراسة لقادرة على استخلاص هذا من سماتهم .. وقد كنت أنت على حقّ حين وصفت لقاء نظراته بالفتاة بأنها كلقاء الصقر واليمامة .. »

« لقد قرأت كتابًا لـ (إزرا توم) بعنوان (ميرشيا وثرواتها) .. وفيه لاحظ الكاتب فى اهتمام ، أن (كاسوول) الجدّ ، كان تلميذًا لـ (ميسمر)(*) فى باريس .. وتعلم منه أدقّ أسرار علمه .. ويقول إن (ميسمر) حين غادر البلاد ترك مع تلميذه كثيرًا من كتبه وأجهزته الكهربية .. وهو كرم لم يُعرف عن (ميسمر) من قبل .. »

(*) فرانتس ميسمر: هو طبيب نمساوى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأجرى تجارب كثيرة على التنويم المغناطيسى فى الحيوانات ، ولفترة طويلة كان لفظ (ميسمرية) يشير إلى التنويم المغناطيسى .. وقد قامت لجنة طبية فرنسية بدراسة تجارب الرجل وقتها واعتبرته نصابًا ، لكن العلم الحديث ردّ إليه اعتباره ، ووجد أن تجاربه كانت مفيدة وجادة !

ولما جاء الغسق ، احتمل (آدم) حيوان الماتجوست - ليس النيبالى - واتجه إلى (أيكة ديانا) ، وللمرة الثانية قابل ليدى (آرابيللا) فى ثوبها الأبيض الشهير ..

ولدهشته البالغة ، تركها الماتجوست تداعبه وتحمله بين ذراعيها فى رفق .. ومشيا معًا فى اتجاه واحد .. كانا يمشيان فى الطريق الدائرى المحاط بأشجار كثيفة ، وكان المكان ظليلاً والرؤية عسيرة بحقّ ..

وفى لحظة ما لم يعد (آدم) يراها .. توارت بين الغصون .. ثم عادت للظهور أمام عينيه ، فى ظلّ شجرة بلوط ، ولم يكن الماتجوست معها .. سألها (آدم) عنه فقالت :

- « انساب من بين ذراعىّ واختفى خلف السياج .. »

ووجدا الحيوان البائس فى نقطة يتسع عندها الطريق .. كان قد تغير كثيراً جدًا .. لم يعد بحيويته السابقة ، بل بدا كسولاً شبه غاف ..

واحتضن (آدم) حيوانه البائس ورفع قبعته محييًا المرأة ، ثم جدّ السير إلى (لسر هيل) وسرعان ما غابت المرأة عن عينيه فى الظلام ..

وفى المساء سمع (آدم) ضوضاء عالية من الصندوق الذى وضع فيه حيوانه المريض ، فى حجرته المغلقة بالمفتاح .. ففتح الصندوق ليجد أن المانجوست ميّت ، وقد بدا واضحًا تمامًا أن هناك من خنقه !

* * *

الفصل العاشر

الطائرة الورقية

فى الصباح التالى بدأ خطر واضح يتكشف .. ومن كلّ صوب فى الأقطار الغربية ، جاءت الأخبار عن هجرة غير عادية للطيور ، وراح الخبراء مع الجهات الحكومية يرسلون بتقاريرهم ، ويقترحون الحلول المناسبة ..

وكانت التقارير الذاتية أكثر إرعابًا .. فالطيور تزداد كثافة من كل الجهات الأربع ، وكان بعضها يرحل ، لكن العدد الكلىّ ـ كان بلا شك ـ فى زيادة مطردة .. ولم يتوقف هدير الأجنحة قط ، ولم يكف أى باب لإيقاف الضوضاء ، حتى إن آذان السامعين أصابها ما يشبه الصمم .. ضوضاء يفعمها الحزن والرتابة والشجن ، حتى إن الجميع اشتهى أى تغيير مهما كان ..

وفى الصباح التالى ازدادت التقارير بشاعة ، وغدا الفلاحون يتهيبون قدوم الشتاء ، بسبب جدب الأراضى ، وهلاك المحاصيل .. لكن هذا كله لم يكن سوى إنذار بالشر ، وليس الشر ذاته .. لقد صارت الأرض عارية تمامًا لا تراها إلا حين ينجح صوت ما فى إفزاع الطيور ..

وراح (إدجار كاسوول) يحاول جاهدًا أن يجد وسيلة تخلصه مما بدا له ولجيرانه كوباء من الطيور .. هداه تفكيره إلى تذكّر تجربة قام بها فلاحو الصين عند منبع نهر (يانجتسى كيانج) .. ففى موسم نضج الأرز هجمت ملايين الطيور مهددة لا الريف فحسب ، بل والبلد بأكمله .. وقد عرف الفلاحون كيف يتوقَّوا هذا الخطر .. صنعوا طائرة عملاقة من ورق ، تبدو كصقر عظيم .. وجعلوها تطير فوق مركز الغزو ، فما إن رأتها الطيور حتى فرت خائفة وتوارت عن العيان..

لذا أمر (كاسوول) رجاله باصطناع طائرة عملاقة تشبه الصقر فى معالمها .. وقاموا بتطييرها فى

السماء ، من ثم راحت الطيور تفرّ مذعورة وتوارت تمامًا .. لكن ما تلا ذلك كان أكثر شرًا وخطرًا .. لقد ساد صمت مريع ، وبدا أن الطيور لم تكن هى وحدها ما صمتت ، بل الحيوانات كلَها ، وكفت الماشية عن الخوار والثغاء .. صمت مخيف كئيب أشد وقعًا من كل الأصوات مهما بلغ رعبها ..

وفى أرجاء البلاد راح المؤمنون يبتهلون للّه كى يخلصهم من هذه العزلة الأليمة ، وساد اكتئاب عامّ ، بدا فى وجوه الرجال الواجمة الخالية من الحياة ، وفى عجزهم التامّ عن التعبير عن أفكارهم ..

ظل ذلك الشىء ـ الطائرة الورقية ـ يحلق فى السماء كأنه وباء شيطانىّ .. بدا كأنه فكرة معادية للبشرية هوت فوق رءوس العباد ، وسحقت تحتها كلّ أمل ..

بدا كأن كلمات الناس مكبلة كأرواحهم ، وكأنهم يمام وجد هذا الصقر المريع يحوم ليل نهار فوقه .. وراح (كاسوول) يفكر فى طريقة للخلاص من هذا

الشرَ المتمكن من البلاد .. فكر مرارًا فى أن ينزل الطائرة الورقية ، لكن هذا بدا مستحيلاً .. وفى كل مرة كان يحاول هذا ، كانت الطيور تنقض بالملايين ، وتنهال توسلات القوم على (كاسترا ريجس) كى يعيد الطائرة للسماء ..

كانت طبيعة ليدى (آرابيللا) الباردة قد حمتها من التأثر بكل هذا ، وكذا كان (كاسوول) متغطرسًا قاسيًا لا يمكن أن يبالى بمعاناة الآخرين ..

أما (ليلا) فكانت تعانى بفظاعة ، وبمرور الوقت ضمر وجهها ، وخوت عيناها من التعبير .. وكذا تأثرت (ميمى) ، لكنها قررت أن تتماسك وتصبر ، وكانت زيارات (آدم) خير عزاء لها ..

* * *

الفصل الحادى عشر

صندوق (ميسمر)

وبعد أسبوعين غدت الطائرة الورقية مصدر استمتاع دائم لـ (كاسوول) ، وراح يمضى الساعات فى مقعد مريح بالبرج ، يراقبها فى تلذذ كأنه طفل .. وبدا للجيران كمن جنّ .. لقد صارت الطائرة وسواسه الوحيد .. وكان هناك دومًا رجل على البرج ، فى أية لحظة من اليوم ، ليعنى بها ..

كان للطائرة حبل طويل جدًا ، مما جعلها أحيانًا تعلو لارتفاعات لا تصدَق ، أو تسافر لمسافات لا توصف .. وتدريجيًا بدأ (كاسوول) يضفى عليها صفات شبه آدمية .. وبدأ يمارس لعبة الصبية القديمة ، بأن يرسل للطائرة عبر خيطها قطعًا من الورق مثقوبة فى المركز ، من ثم تحمل الريح تلك القطع إلى الطائرة مهما كان ارتفاعها ..

وجن جنونه أكثر ، فراح يرسل خطابات كاملة إلى الطائرة ! ، ثم بدأ يكلمها بشكل مباشر .. وساعد الارتفاع الهائل ، وشموخ البرج ، والريح العاصفة ، فى جعل عقله يذوب ببطء لكن بإصرار .. وقرر أن يضع فى البرج أشياء من غرائب القلعة ، التى تركها الورثة القدامى لتراها الطائرة الورقية : رفاتًا من المقابر الفرعونية .. طرائف من أستراليا والبحار الجنوبية .. أصنامًا هندية وفارسية .. وأسلحة من كل شكل وحجم .. مدى الأفغان ذات الحدين ، وخناجر الصينيين ، وحبال خناقى الهند ، وسيوف السفاحين فى إيطاليا وأسبانيا .. بل وحيوانات سامة أو مفترسة تم تصبيرها ، وأنواعًا من الفطر السامّ ، وزجاجات السمّ الزعاف .. كان معرضًا مريعًا يثير الهلع فى أعتى القلوب ، لكنه راق للعبد الزنجى ، الذى راح يمضى فى البرج وقتًا أطول ، واستسمح سيده كى يسمح له بالعناية بكل تلك الغرائب ، فوافق هذا ..

وراح (كاسوول) يبحث عن جديد يضيفه إلى هذه الطرائف المريعة ؛ فدلّه القوم على من يدعى (سيمون تشستر) فهو يعرف كل شىء عن البيت ..

أرسل يدعو الشيخ إليه .. وكان هذا قد جاوز التسعين من العمر ، بالغ الوهن ، خدم فى القلعة طيلة حياته .. فلما استجوبه (كاسوول) ، بدا ذعر شديد على وجه الرجل ، مما استشعر معه (كاسوول) أن الرجل يدارى شيئًا ..

ولما شعر الرجل ألا مفر له من الكلام ، تكلم أكثر مما توقع سيده :

ـ « حقًّا يا سيدى كل شىء هنا فى هذه القلعة ما عدا .. ما عدا .. ـ وراح يرتجف فى رعب ـ ما عدا الصندوق الذى جلبه من كان يدعى مستر (إدجار) معه من فرنسا ، بعد ما كان مع المستر (ميسمر) .. إن الصندوق فى غرفتى لكنى سأجلبه هاهنا .. »

ـ « وماذا فيه ؟ »

ـ « لا أدرى .. ثم إنه صندوق خاص ، لا توجد طريقة معينة لفتحه .. ولا يوجد به ثقب مفتاح .. »

- « إلىّ به .. وتعال أنت أيضًا معه .. »

- وجاء رجلان بالصندوق الثقيل المغلق .. فانفرد (كاسوول) بالعجوز وقال :

« هل أنت واثق من أنك لم تفتح هذا الصندوق ؟ »

- « محال يا سيدى .. كيف أجرؤ ؟ لقد كان أمانة ائتمننى سيدى عليها ، وما كان لى أن أخونها .. »

- « إذن دعه معى .. وأغلق الباب .. لكن .. هل لمّح أحد لك بما يمكن أن يحويه هذا الصندوق ؟ »

شحب وجه الشيخ وضم يديه كمن يتوسل وقال :

- « الحق يا سيدى أننى أرجوك ألا تفتحه .. هذا الصندوق يحوى فى الغالب أسرارًا علّمها دكتور (ميسمر) لسيدى السابق .. وفيها الخراب كما يقولون..»

- « هذا كاف .. يمكنك الانصراف إلى غرفتك إلى أن أدعوك .. »

وعاد (سيمون) العجوز أدراجه يرتجف رعبًا ، لكنه لم ينبس ببنت شفة .

الفصل الثانى عشر

الصندوق يُفتح

وحيدًا فى غرفة البرج ، أغلق (كاسوول) الأبواب ، وسدّ ثقب الباب بمنديل ، ثم عكف على فحص الصندوق بعدسة مقرّبة ..لم تكن هناك من وسيلة لفتحه ، وكان الليل قد دنا ، فقرر أن يتركه حيث هو وينام .. على أن يبدأ المحاولات صباحًا ..

وفى الصباح قضى يومًا كاملاً فى محاولات عقيمة.. ثم طلب أن يرسلوا له رجلين قويين ، ليحملا الصندوق إلى غرفة نومه ، وهناك أمضى الليل جالسًا ، وقد استحال عقله محمومًا فى دوّامة من الاستثارة ..

لعب الظلام والصمت دورهما ، وراحت آلاف الأفكار المنسية والذكريات تتزاحم هناك فى عقله الواهن .. أخيرًا رُزق بنوم هادئ منتظم أراح جسده المنهك وعقله المتوتر ..

صحا من نومه بحركات آلية ، كأنما يطيع تأثيرًا أقوى منه ، فوضع الصندوق على منضدة هنالك .. لقد اقتضاه هذا العمل قوة ، كان يعرف أنها تفوق كل قدراته الطبيعية .. كل شيء كان سهلاً ، وبشكل ما - وإن كان لا يذكر كيف - وجد الصندوق بين يديه مفتوحًا ..

فتح الباب واتجه إلى البرج ، وبنفس الكيفية كان يحمل الصندوق .. كان عقله فى غيبوبة تامة ، لكنه كان يعرف أن الصندوق بالغ الثقل .. وبدا له هذا غريبًا .. كان يدرك جيداً أنه مازال نائمًا ، وأنه يطيع أمرًا لقوى لا يراها ، أكثر من أن ينفذ إرادته الخاصة ..

بدأ يخرج المحتويات - التى كان أكثرها أشياء معدنية وزجاجية - ويركبها ببراعة لم يعرفها عن نفسه من قبل .. ولم يدر متى فقد الوعى من الإرهاق الذهنى والعصبى ..

وفى الصباح نهض من النوم ليجد أنه فى غرفة نومه ، والصندوق كان بجواره فى مكانه المعتاد ! وكان مغلقًا ..

واصل النوم حتى الظهر ثم صحا جائعًا ، فأكل بشهية وواصل النوم من جديد .. وعندما جاء المساء صحا ليجد أن الظلام يحيط به ، وأن الصندوق مفتوح دون أن يتذكر متى فتحه ثانية ، وأن جواره قطعة ، مما بدا له كجزء مهشم من عجلة زجاجية ..

واصل (كاسوول) تجاربه مع الطائرة الورقية ، وبدأ يحاول أن يرسل لها عبر الخيط أجسامًا أكثر ثقلاً من الورق .. وقد وجد أن الطائرة قادرة على جذب هذه الأجسام .. ثم جازف أكثر ففكر فى إرسال أحد الأشياء المعدنية والزجاجية التى وجدها فى الصندوق .. وجد شيئًا راق له من قبل ؛ هو تمثال فرعونى لـ (بيس) Bes الذى كان الفراعنة يزعمون سيطرته على قوى الطبيعة المدمرة .. كان التمثال أثقل مما يوحى به حجمه ، وقد فحصه بدقة ، فوجد أنه منحوت من حجر ممغنط .. وتذكر أنه قرأ شيئًا كهذا فى كتاب السير (توماس براون) المسمَّى (شائعة) ، وهو كتاب يعود للقرن السابع عشر ..

أثارت غرابة التمثال شهيتـه ، بالإضـافة إلى قربه من طبائعه الخاصة .. ودفعه هـذا دفعًا إلى أن يربط التمثال فى حلقة من خشب ، ويرسلها عبر الحبـل إلى الطائرة المُحلَقة ...

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

هلاوس أولانجا

فى الأيام القليلة الماضية نفد صبر ليدى (آرابيللا) للغاية .. ازدادت ديونها ولم يعد لديها من أمـل سوى الظفر بزيجة ثريَة .. لكن الزوج الذى اختارته لنفسها لم يتحرك قط بالسرعة التى أرادتها .. بالواقع لم يتحرك قط فى الاتجاه الذى أرادته ، ولم يصر (إدجار كاسوول) عاشقًا متيمًا بهـا .. والمشكلة بالنسبة لهـا ، هى أنها أظهرت اهتمامها بـه أمـام الجميع ، وبمـا يتجاوز حدود الكبرياء الشخصية .. بالتالى لم يعد لديها من سبيل للتراجع ..

كانت ليدى (آرابيللا) باردة بطبعها ، مستعدة لأى شىء ـ بمـا فيه الإهانة ـ كى تصير سيدة (كاستـرا ريجيس) ، وكانت قد فهمت ميـل الرجل الطبيعى إلى (ليـلا) .. لكنهـا كـانت واثقـة فـى أنوثتهـا .. إن (كاسوول) بعد كل شىء هو مجرد رجل ..

فى الآن ذاته كان هناك من يضع الخطط فى (كاسترا ريجيس) شاعرًا أنها توشك على النجاح .. كان (أولانجا)

وغدًا معدوم الخلاق ، وقد أدرك أن أمامه طرقًا لا بأس بها للترقى فى هذا المنزل .. وقد رأى بوضوح ، أن ليدى (آرابيللا) تنصب شباكها حول سيده ، وبصبر راح يرتقب ما يسفر عنه هذا .. كان ككل من فى القصر ، قد لاحظ العناية القصوى التى يتم بها حمل الصندوق من وإلى البرج ، وقرر أن هذا يعنى أنه مفعم بالكنوز .. لهذا قدّر أن المرأة ترغب فى سرقة هذا الكنز ..

والحقيقة الأخرى هى أن (أولانجا) كان متيمًا بحبّ ليدى (آرابيللا) ، بالعنف والجنون ، اللذين يتناسبان مع طباعه الهمجية الشرسة ، وكان يحلم بأن يتزوجها ويعيش معها فى وطنه فى الأدغال ، لكن المرأة رفضت حبه فى اشمئزاز وتعالٍ ، مما أورثه حقدًا بالغًا عليها(*) ..

★ ★ ★

(★) يجب ألا ننسى أن القصة كتبها كاتب بريطانى فى ذروة عهد الاستعمار ، وهو هنا يعبر عن المفهوم السائد وقتها لدى أكثر الكتاب الغربيين : الزنجى وحش مفترس من الأدغال ، لا يملك إلا كل ما هو حقير وشرير من العواطف .. وقلبه دائمًا أقبح من وجهه ، وفى الحقيقة لم نستطع مقاومة إغراء حذف الكثير من العبارات العنصرية ، التى لا تتهم هذا الزنجى فحسب ، بل وكل من هو أسود البشرة عامة !

وبعد محاولات كثيرة وأوراق عديدة ممزقة ، كتبت ليدى (آرابيللا) خطابًا إلى (إدجار كاسوول) تقول فيه :

عزيزى مستر كاسوول :

أبغى الكلام معك فى موضوع أحسبه يهمك .. فهل تتكرم بطلبى فى أى يوم يناسبك بعد الغداء - وليكن فى الثالثة أو الرابعة عصرًا - لنذهب معًا إلى مزرعة (ميرسى) حيث (ليلا) و(ميمى) ؟ لا تحضر خادمك الزنجى معك ، فهو يثير هلع الفتاتين .. وبعد كل شىء هو ليس جميلاً .. ألا ترى هذا ؟ أعتقد أن هذه الزيارة بالذات ستسعد فؤادك .

المخلصة

ليدى آرابيللا

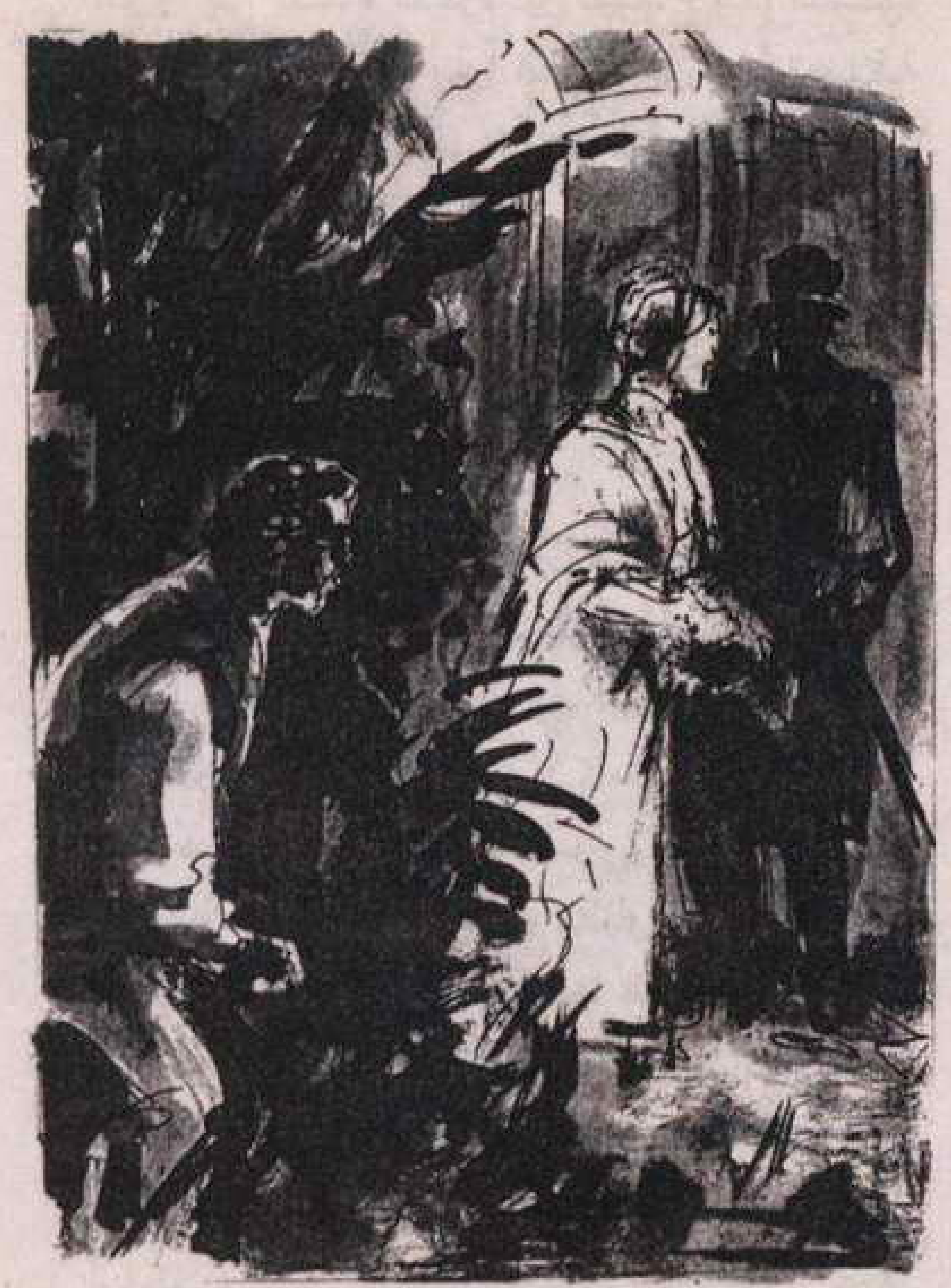
وفى اليوم التالى فى الثالثة والنصف ، جاء (كاسوول) إلى (أيكة ديانا) ليلقى ليدى (آرابيللا) ، وكانت تنتظره جوار البوابة .. من ثم اتجها إلى مزرعة (ميرسى) معًا .. وكان (أولانجا) متواريًا يراقبهما كما أمره سيده ..

قالت ليدى (آرابيللا) دون مواربة :

ـ « حسن .. إن الخطر الحقيقى عليك لا يجىء من (ليلا) ، فالفتاة هشة وقد صارت لك .. الخطر يأتى من (ميمى) .. لهذا أبق عينيك عليها وحاصرها .. ولسوف أشتت أنا انتباهها بشدة كلما شعرت أنها تقاوم نظراتك !! »

استقبلتهما الفتاتان .. ومن جديد تكرر صراع الأرواح السابق .. لكن (آدم سالتون) لم يكن هاهنا ، ولكم افتقدت (ميمى) دعمه النفسى لها ..

كانت أصوات الحفيف آتية من بعيد .. صوت المروج التى تهشمت أوراقها ، فقد كان فصلاً بالغ الجفاف .. ومعها أصوات ملايين الطيور تهمهم .. تغتال الصمت المخيف الذى حلّ بالبلاد ..



وكان (أولانجا) متواريًا يراقبهما كما أمره سيده :
قالت ليدى (أرابيللا) دون مواربة : ـ « حسن ...

نظروا إلى السماء مدهوشين لسماع هذا الصخب بعد ما نسوه زمنًا ، هنا رأوا الطائرة الورقية العملاقة فوق برج (كاسترا ريجيس) تفلت من حبلها .. تتلوى فى السماء .. ثم تسقط ..

شحب وجه ليدى (آرابيلا) ، وأوشكت على السقوط أرضًا .. وتساءلت فى رعب :

- « ما كان هذا ؟! »

أما (كاسوول) ، فكان أول من استعاد رباطة جأشه ، برغم المشهد المروع لسقوط طائرته الحبيبة .. وبدورها عادت (ميمى) لصوابها .. وكان لديها يقين تامّ أن صراع الإرادات بينها و (كاسوول) ، هو فى حقيقته صراع بين الخير والشرّ .. لقد وجدت فى سقوط الطائرة وعودة صوت الطيور دليلاً ملموسًا على رجحان كفة الخير .. وأمدها هذا بعزيمة لا شك فيها .. فى ثبات قابلت نظرات (كاسوول) وأرغمته على التراجع إلى الباب مع صاحبته .. كان غير قادر على المقاومة أو التركيز أكثر وكذا كانت ليدى (آرابيلا) ..

هنا انفتح الباب ودخل (مايكل واتفورد) - جدّ الفتاتين - فلم ير شيئًا غريبًا لأن الجميع استعاد السيطرة على أعصابه بسرعة شديدة ..

قال إذ رأى التساؤل فى عيونهم :

- « هذا صوت الحمام فى هجرته السنوية من إفريقيا .. قيل لى إن هذا الصخب سينتهى سريعًا »

* * *

كان (كاسوول) يغلى غضبًا .. وكانت (ميمى) هى مركز أحقاده الأول ، لأنها جعلته يفشل .. بعد هذا كان يحقد - بلا سبب - على (ليلا) ، تلك البريئة الطاهرة ، التى تشبه اليمامة فى طباعها ولون ثيابها ، والتى لم يحو قلبها قط سوى الحب ..

بعد هذا بمسافة يجىء دور (آدم سالتون) .. ولم يكن (كاسوول) يحمل ضده ضغينة مباشرة ، لكنه اعتبره عقبة يجب تدميرها .. لم يكن (كاسوول) يفهمه ، وكان هذا سببًا كافيًا لكراهيته ..

أعاد الرجال الطائرة الورقية إلى موضعها ، وعاد (كاسوول) يمضى الوقت فى مراقبتها .. ويجرّب إرسال أجسام أثقل فأثقل عبر السماء بوساطة حبلها .. ومن حين لآخر كان يعاود تفقد صندوق (ميسمر) ..

فى ذات يوم وجد فى الصندوق ما راق له .. كان هذا الشىء هو سلك رفيع جدًا كشعرة رأس .. يلتف حول عجلة دقيقة الصنع ، وخطر له أن يرسل هذه البكرة إلى الطائرة عبر الخيط .. لكن الغسق كان قد جاء ، وكان عليه أن يثبت ثقلاً إلى هذه البكرة كى لا تفلت ، حتى يجىء الصباح ويبصر ما يفعله ..

ولما لم يجد ما يصلح ، استعمل ذلك التمثال الفرعونى الممغنط لـ (بيس) ، ثم دخل لينام ونسى الأمر برمته ..

لكن شعورًا غريبًا بعدم الراحة داهمه طيلة الليل ، وإن كان النوم لم يجافه ، لأنه شعر بأنه نام حقًا .. وفى الصباح أثار ذهوله أنه لم ير الطائرة فى موضعها

المألوف ؛ بل وجدها فى الناحية الأخرى من البرج تصارع الريح الغربية ..

كان هذا غريبًا إلى حد أنه قرر فهم ما حدث ، وأن يحتفظ به سرًا فى ضميره ..

كان يجيد استعمال آلة السدس ، حتى غدا خبيرًا فى أسرارها ، وقد استعملها الآن ليحدد بدقة مكان الطائرة وزاويتها .. وأثار دهشته أن الطائرة تشير بدقة إلى (أيكة ديانا) .. لم يرد إقحام ليدى (آرابيلا) فى الأمر لأسباب لم يفهمها .. لكنه فى اليوم التالى وجد الطائرة تحلق باتجاه مزرعة (ميرسى) ..

راق له هذا التبدّل .. لكن سببه ظلّ سرًا مستغلقًا عليه .. وبعد أيام طويلة قضاها بالكامل فى البرج ، قرر أن يطلب رأى أولانجا .. لكن قيل له إن العبد لم يظهر منذ ليلة أمس ..

كان متوترًا ، ويشعر بحاجة ماسّة إلى من يتحدث إليه ؛ لذا أرسل فى طلب (سيمون تشستر) .. وجاء

الأخير قلقًا ، منقطع الأنفاس ، يتوجس من هذا الاستدعاء المفاجئ ..

ما إن هدأ العجوز، حتى كرر (كاسوول) سؤاله عما إذا كان قد فتح الصندوق أو يعرف محتواه ..

هنا امتقع وجه العجوز، وتلاحقت أنفاسه وعلى الفور غاب عن الوعى ..

حاول الخدم إفاقته دون جدوى .. وجاء الطبيب ، فتفحص العجوز.. كانت نظرة واحدة كافية كى يعرف ، لكنه أمضى وقتًا لا بأس به يتفحص الجسد ، قبل أن ينهض ويقول بصوت مبحوح :

- « يؤسفنى يا سيدى أن أقول إن الرجل قد توفى .. »

* * *

الفصل الرابع عشر

فى الأثر

شعر من عرفوا (إدجار كاسوول) وخبروا برود طباعه ، بدهشة بالغة للمدى الذى تأثر به الرجل لموت العجوز ، وحسبوا هذا نوعًا من رقة القلب على خادم عجوز مخلص لأسرته .. ولم يفهموا أن الأمر لم يزد على حزن أنانى لفقدان دليل مهم .. جزء شائق من تاريخ الأسرة سيغلفه الغموض للأبد ..

وكانت لدى ليدى (آرابيللا) لعبتها الخاصة .. لقد قررت أن هذه فرصتها لتلعب دور الصديق العطوف المخلص ، وقد لعبته ببراعة إلى حدّ أن (كاسوول) نفسه تأثّر كثيرًا ..

وفى ذلك الصباح ، كان (آدم) قد خرج يتفقد المكان ومعه حيوان الماتجوست فى صندوقه ..

ووصل إلى بوابة (أيكة ديانا) ، فى الوقت ذاته الذى كانت فيه ليدى (آرابيلا) تتهيأ لتنطلق إلى (كاسترا ريجيس) .. رأت (آدم) من نافذتها فقررت أن تلحق به متوارية فى ظلال الأشجار، لتعرف وجهته وغرضه ..

وبدوره تحرك (أولانجا) فى إثرها .. وكان يجيد إخفاء آثاره أكثر منها ..

رأى (آدم) يحمل على كتفه صندوقًا غريب الشكل ، قدّر أن ما به عظيم القيمة .. ولما كانت ليدى (آرابيلا) تقفو أثره ، فقد قدّر أن غرضها - هو ببساطة - السرقة ..

اتجه (آدم) إلى (كاسترا ريجيس) ، فرآها (أولانجا) تتبعه فى سريّة تامة .. كان تفكيره منحصرًا فى المرأة ، فلم ير أن (آدم) قد دخل ممرًا فرعيًا يتجه للطريق الرئيسى ..

وفى هذا الصباح بالذات لم يكن (كاسوول) قد نال نومًا طيبًا .. تناول إفطارًا مبكرًا ، وجلس جوار النافذة يتأمل الطائرة ويفكر ..

فجأة رأى ذلك الصف من المتسللين يدخلون إلى أرضه ، ثم يتفرقون .. توارى (أولانجا) بين الأشجار ، لكن (كاسوول) رأى أنه مازال دانيًا يراقب ....

أما ليدى (آرابيلا) فقد انسلّت من الباب المفتوح ، بعدما تلفتت حولها فى حذر، فلم يعد يراها .. ثم سمع طرقة خافتة على الباب ، وانفتح الباب ببطء ليتبدى منه ثوب ليدى (آرابيلا) الأبيض .

* * *

الفصل الخامس عشر

زيارة تعاطُف

دهش (كاسوول) بشدة لرؤية ليدى (آرابيللا) ، برغم أنه كان يجب إن يتوقع قدومها .. كانت دهشته واضحة ، حتى إن المرأة ارتبكت قليلاً .. لكنها كانت جريئة سريعة الخاطر ، وبدأت الكلام حالاً ..

ـ « قد جئت لأقدم لك تعاطفى الشديد مع الحزن الذى خبرت مؤخرًا .. الخادم العجوز الذى توفى .. »

استرخى وجه (كاسوول) وزال بعض من دهشته ، وقال :

ـ « آه .. لم يكن سوى خادم .. وقد تجاوز التسعين من العمر ! لربما أبقاه من كان هنا ، لأن طرده فضيحة . »

بحثت عن ذريعة أخرى للكلام ، فهداها تفكيرها إلى موضوع شخصى :

ـ « أنا آسفة .. أنت تعرف أننى غير تقليدية ، لكننى ـ فى الآن ذاته ـ لم ألفظ التقاليد ، وأرى أن الوقت غير مناسب لهذا الاقتحام لخلوتك .. »

وبرغم كل شىء كان (كاسوول) جنتلمانًا ، فأعلن أنه يرحب بها فى أى وقت .. قالت وهى تبتسم بلطف :

ـ « الحق أنك تجعل المرء يشعر براحة بالغة .. »

وحكت له تفاصيل ملاحقات الزنجى لها ، فقال لها فى فهم :

ـ « إليك هذه النصيحة .. لو ضايقك أدنى عيب فى هذا الزنجى المنحطَ ؛ أطلقى الرصاص عليه حالاً ! إن القانون لا يعبأ كثيرًا بحياة السود .. ولو قلّ عددهم قليلاً فلا مشكلة هنالك .. »

ـ « هذا يريحنى .. فأنا لا أحب الزنوج .. والآن قل لى .. هل سامحتنى ؟ »

ـ « بالطبع يا عزيزتى لو كان هناك ما أسامحك عليه .. »

واتجهت للباب فاصطحبها بعدما أعطاها ذراعه بطريقة طبيعية مهذبة ..

وإذ اتجهت لدارها ، كانت تبتسم فى سرها راضية وقالت لنفسها :

« حسن .. على الأقل لم يضع الصباح سدى .. »

* * *

عاد (آدم) إلى داره ، فوجد السير (ناثانييل) يوشك على الانتهاء من وجبة غدائه ـ ولم يكن عمه موجودًا ـ فجلس معه ، ثم دخل الرجلان إلى غرفة المكتب يدخنان ويتكلمان ..

قال السير (ناثانييل) :

ـ « ثمة شىء مهم تذكرته عن (أيكة ديانا) ، ولربما ينير لنا طريقنا فى هذا البحث الغامض .. هل رأيت البيت هناك ؟ »

ـ « فقط من الخارج ، لكننى أذكره جيدًا وأستطيع أن أركّب عليه ما تقول .. »

ـ « إن البيت عتيق حقًا .. ربما أول ما كان هنا من عهد الرومان .. لكنى لا أحسب الأساسات أقدم من عهد غزو النورمان .. ولقد تفحصته جيدًا حين اشتراه الكابتن (مارش) ، وكان إعداده جاريًا من أجل العروس القادمة .. إن أساساته قوية جدًا فكما قلت لك كان من المفروض أن يكون هذا حصنًا .. فى البدروم توجد غرف عديدة ، لكن واحدة منها أثارت شغفى بالذات .. لقد تم تدعيم جدرانها بشكل مُبالغ فيه .. وفى وسطها حفرة عميقة كالبئر .. لكنه بئر بلا مرفاع ولا حبل ولا شىء من أى نوع .. ونحن نعرف أن الرومان كانوا يحصلون على الماء من آبار مهولة العمق ، ربما يصل عمق بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم ..

« باب الغرفة ثقيل جدًا عليه مزلاج هائل ، ومن الواضح أن هذا بغرض حماية شىء أو شخص من خطرما .. وهنا أفترض أن هذه البئر كانت هى الفتحة التى تدخل وتخرج منها الدودة البيضاء ، أيًا ما كان كنهها ..

« كان علىّ وقتها أن أتقصّى ما بداخل تلك البئر، لكن طلبى قوبل بالرفض .. وسرعان ما نسيت المسألة .. »

- « وهل تذكر يا سيدى كيف كانت الغرفة تبدو؟ »

- « لم يكن بها شىء سوى ضوء أخضر غريب ، لم أر مثله من قبل ، ويجىء من أعماق البئر .. كانت هناك درجات ملساء من كثرة الاستعمال ، حتى كدت أتعثر وأسقط فى البئر.. كانت هناك كذلك رائحة كريهة تذكرنى برائحة قاع السفن ، وكانت مثيرة للاشمئزاز بشكل خاص ، تدفع إلى القىء .. »

- « أهذا كل شىء يا سيدى ؟ »

- « هذا ما أتذكره الآن يا بنى ، ولسوف أخبرك بعد العشاء بكل ما أتذكره عن هذا الموضوع .. »

* * *

الفصل السادس عشر

لغز الأيكة

أزمع (آدم) أن يتوجه إلى (أيكة ديانا) ليتقصى الأمور قليلاً .. ولذا اتجه خلسة إلى هناك وهو يأمل فى ألا يراه أحد من خدم ليدى (آرابيللا) ..

كانت الأشجار الكثيفة فى صالحه ، فما إن وصل إلى طرف المنزل ، حيث ينحدر الجدار الصخرى ، حتى رأى الزنجى (أولانجا) يكمن خلف جذع غليظ لشجرة بلوط عظيمة .. وكان منهمكًا فى المراقبة ، مما منح (آدم) مزية أن يرى دون أن يُرى ..

كان الزنجى يحمل فانوسًا صغيرًا ، يسلط ضوءه إلى أسفل حيث المنحدر .. وفى الضوء بدت بضع درجات تنتهى عند باب حديدى فى الصخر.. ازدحمت على الفور فى ذهن (آدم) كل القصص الغريبة التى

سمعها من سير (ناثانييل) ، وبفضول راح يرقب ما عساه يحدث ..

كان الزنجى يرفع الفانوس محاولاً جهده أن يرى ما وراء الباب من فرجة فى أعلاه .. فلما فشل ، قبع جوار الباب ينتظر .. فى الغالب ينتظر أن يدنو أحد ليدخل من الباب ..

ثم ظهرت ليدى (آرابيللا) قادمة من الظلمة بلا صوت .. حين رآها الزنجى دانية ، خرج من مخبئه وتكلم معها همسًا .. الهمس الذى بدا فى الظلام الكئيب كهسيس ..

ـ « أريد الحديث معك يا سيدتى .. »

استدارت نحوه بعينين تلتمعان ، وقد التمع اللون الأخضر فيهما كالزمرد ..

ـ « اسمع .. لو كان هناك شىء مهمَ لديك ، يمكننى سماعه هنا فى الساعة السابعة .. »

جثا الزنجى على ركبتيه ، وراح يتكلم بصوت خفيض .. ومن مكانه راح (آدم) يرقب المشهد

الغريب ، والدهشة تغمره ، ثم أزمع أن هذا كاف ، وقرر العودة إلى (لسر هيل) ، على أن يكون هنا متواريًا فى السابعة مساءً ..

وفى السابعة توارى (آدم) فى المكان ذاته وانتظر .. بعد قليل رأى بريقًا أبيض ينسلَ ما بين الأشجار ، ولم يندهش حين أدرك أن هذه هى ليدى (آرابيللا) ..

بعد قليل جاء (أولانجا) ودنا منها .. وأثار ذهول (آدم) أن الرجل كان يحمل على ظهره صندوق المانجوست ، غير عالم أن صاحب الصندوق قريب يراقب ما يحدث ..

قالت له :

ـ « ما هذا الذى تحمله على ظهرك ؟ أتابوت لى ؟ إذن لا تتعب نفسك .. فهو لا يناسب حجمى ! »

قال لها بلهجته السوداء محنقًا :

ـ « هذا الزندوق يهوى سينًا قد يهمك الهصول عليه .. »



وفتحت له بابًا صغيرًا .. على أن تلحق به بالداخل .. وتأمل (آدم) صندوق المانجوست ..

كانت خائفة من أن يبدأ فى إعلان افتتانه بها ، وقررت أن تقتاده للداخل لترى ما بداخل الصندوق ، لكن من حيث لايراه الخدم لأنه لا يليق بها - وتعمدت أن تقولها بوضوح - أن يراها أحد مع زنجى مثل هذا ! وفتحت له بابًا صغيرًا .. على أن تلحق به بالداخل ..

وتأمل (آدم) صندوق المانجوست ، وسرّه أنه مازال مغلقًا .. ولا شعوريًا مدّ يده إلى صدره بحثًا عن المفتاح الذى كان يحمله .. ثم إنه هرع يلحق باللیدی (آرابيللا) ما إن توارى (أولانجا) وراء الباب ..

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

فليرحل (أولانجا)

لمس (آدم) كتفها فاستدارت بحدة ..

همس لها :

ـ « دقيقة واحدة ونحن وحدنا .. لا تثقى بهذا الزنجى !! »

كانت إجابتها حاسمة مختصرة :

ـ « أنا لا أثق به »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « إنه يريد الزواج منى .. ولهذا يريد رشوتى بإعطائى صندوقًا من الكنوز ـ أو هذا ما يظنه ـ سرقه من (كاسوول) .. ولماذا لا تثق به بدورك ؟ »

ـ « هذا الصندوق الذى معه مسروق منى .. تركته فى غرفة السلاح فى أثناء العشاء .. فلابد أنه زحف وسرقه حاسبًا أنه ملىء بالكنوز .. »

هزت رأسها واقتادته إلى باب معدنى فى الجدار ، وفتحته ليدخلا إلى غرفة هائلة الحجم جدرانها من حجارة متلاصقة ، حتى لا يظهر منها إلا سطح ناعم ، وكان الضوء أخضر غريبًا يصعب تبين مصدره ..

كان هناك باب معدنى آخر اتجهت إليه ، وأولجت فى مزلاجه العملاق مفتاحًا صغيرًا ، وبغير ضوضاء انفتح الباب بنعومة ، وعلى الدرجات الحجرية خلف الباب وقف (أولانجا) والصندوق على كتفه .. رآها تدعوه للدخول فدخل ، لكنه وقف للحظة وتلفت حوله ، وغمغم :

ـ « ميتات كثيرة حدثت هنا .. الكثير منها .. حسن .. حسن ! »

وتشمم الهواء كأنما ينعم بالرائحة ، وكان هذا مقززًا إلى حد أن يد (آدم) امتدت لا شعوريًا إلى مسدسه ، وسره أنه متأهب لأى طارئ ..

كانت البئر الآن جوارهما ، وشم (آدم) الرائحة الكريهة التى تلذذ بها (أولانجا) ، ولم تبد ليدى (آرابيللا) اهتمامًا بها .. لم يكن قد شمّ مثلها قط فى كل خبرات حياته المريعة .. مستشفيات الميدان.. غرف التشريح .. المجازر .. لم تكن تشبه شيئًا من هذا كله وإن حوت شيئًا منه ، بالإضافة إلى رائحة كيماوية معينة ، ورائحة كقاع مركب غريق هلكت فئرانه كلها ..

هنا لاحظ الزنجى أن (آدم) هنا .. وعلى الفور أخرج مسدسًا وأطلق رصاصة عليه لم تصب هدفها لحسن الحظ .. وكان (آدم) من سريعى الانعكاس فى الإطلاق ، لكن الرجل أخذه على حين غرة ، بينما عقله شارد فى شىء آخر .. لكنه استعاد توازنه سريعًا ، ولم يكن بالشخص الجبان الذى يهاب القتال ..

وفى اللحظة التالية اصطرع الرجلان .. وجوارهما البئر الرهيبة .. كانا على الحافة ذاتها .. وحاولت ليدى (آرابيللا) أن تمسك بمعصم الزنجى ، لكنه تملص منها ، وكاد يهوى فى البئر ..

هجمت عليه من الخلف محاولة إعاقته ، وهنا انفتح الصندوق على ظهره ، ووثب منه حيوان المانجوست قاتل الكوبرا .. وبهياج لا يصدق انقض على حلقها لينشب أنيابه فيه ..

أمسكت بالحيوان ، وبغضب يفوق غضبه ، مزقت جسده إلى نصفين ، كأنه من الورق.. فلابد أن عملاً كهذا اقتضاها قوة لا تصدق .. وفى اللحظة التالية أمسكت المرأة بـ (أولانجا) وجذبته نحوها بذراعين قويتين بيضاوين ، وهوت معه إلى فتحة البئر ..

رأى (آدم) ضوءًا أخضر وأحمر يلتمع فى دوامة ، ثم يغوص فى البئر مع جسد له عينان خضراوان تبرقان ، وتهويان لأسفل .. لأسفل .. فما إن غاص الضوء وساد الظلام ، حتى سمع (آدم) صرخة مريعة من الأعماق .. صرخة جمدت الدم فى عروقه .. صرخة ألم بدا أنه لا نهاية لها .. وأدرك أنه ما عاش لن ينسى أبدًا الهول الذى رآه فى هذه اللحظات ، وتسلط عليه خاطر واحد : أن يفر من هنا حالاً ..

نظر إلى الدرجات الحجرية وفرك عينيه فى ذهول..

كان الجسد المدثر باللون الأبيض لليدى (آرابيلا) يتسلق الدرجات .. واللون الوحيد الذى تراه عليها هو لون الدم على يديها ووجهها وحلقها .. فيما عدا هذا كانت هادئة ثابتة الجنان ، كما كانت حين اقتادته ، ليدخلا عبر الباب الحديدى ..

* * *

الفصل الثامن عشر

عدو فى الظلام

بأعصاب متوترة مهتزة عاد (آدم) إلى داره ليلقى السير (ناتانييل) ، وقد سره أن عمه لم يكن هناك فى هذه الليلة ، مما يزيح عن كاهله عبء مصارحته بما حدث ..

كان السير (ناتانييل) قد أخلد للنوم ، فقرر (آدم) أن يرجئ الكلام للصباح ، لأنه بحاجة إلى كل تركيز الرجل ..

ومن الغريب أنه نام جيدًا .. وصحا نشيطًا بأعصاب هادئة .. جاءته الخادمة بالشاى وخطاب من ليدى (آرابيلا) ، وجدته فى بريده .. قرأه عدة مرات فى إمعان حتى استوثق من أنه فهم محتواه بالكامل :

« عزيزى مستر سالتون :

« لم أستطع النوم دون أن أكتب لك هذا الخطاب .. أرجو أن تغفر لى إذا قلت أكثر أو أقل مما يجب فى محاولتى ألا أتجنب الصواب .. لقد اهتزت أعصابى بحق من فرط الأهوال التى عشناها فى الليلة السابقة .. ويؤسفنى أننى بشكل ما كنت سببًا في المتاعب التى عشتها أمس .. لكنك كنت عونًا حقيقيًا لى فى أوان الخطر المميت ..

« لسوف أذكر ما حييت ذلك الوجه الأسود المقيت ، ولسوف يحجب عن ذاكرتى كل ذكرى لضوء الشمس والزهور ..

« لعلك لاحظت رابطة العنق ، تلك المصنوعة من الفراء الأبيض الثمين ، التى أرتديها دومًا .. لقد كان الزنجى يرمقها دومًا فى شغف ، وكانت هى ما قاده لحتفه أمس .. لقد حاول انتزاعها منى على حافة الهاوية ، وكان هذا آخر ما فعله ، لأن الرابطة تمزقت وهوى هو فى البئر .. ونجوت أنا ولم أفق إلا على صوت صرخته المريعة ..

« وحين ثاب إلىَ رشدى عرفت ما تعنيه لفظة حرية .. الحرية التى منحتها أنت لى حين أنقذتنى من مطاردة هذا الوحش لى ..

« لن أثقل عليك .. لقد قررت أن أرحل إلى لندن لأقيم فى فندق (ماى فير) ، لا لوقت طويل - بسبب ارتباطاتى هنا - ولكن لمدة أسبوع لا أكثر.. وأظن أن حياتى فى صخب العاصمة وسط أناس عاديين ، سوف يلطِّف - لا أقول يزيل - ذكريات تلك الليلة المهولة من ذاكرتى ..

« لسوف يسرنى كثيرًا أن أراك لدى عودتى .. ولربما قررت أن تلحق بى فى لندن لننسى معًا الأخطار التى واجهتنا .. وداعًا وشكرًا من جديد . »

(آرابيللا مارش)

طوى (آدم) الخطاب ، وأزمع ألا يكلم عنه سير (ناثانييل) حتى يكوّن رأيه الخاص بصدده .. وكان الإفطار صامتًا ، مما مكنه من أن يواصل التفكير ..

وبعد الإفطار سأله السير (ناتانييل) عما يثقل فكره ، فقرر أن يحكى له كل ما حدث أمس.. وكان محايدًا حرص على ألا يضيف إلى الأحداث ما من شأنه أن يظهر رأيه الخاص أو انطباعاته .. وراح السير (ناتانييل) يصغى دون تعليق بعدما وجد قصة (آدم) متكاملة تفسر نفسها .. وحين وصل (آدم) إلى الخطاب لم يعلق الدبلوماسى العجوز ، واكتفى بتدوين بعض ملاحظات فى مفكرته ..

ثم سأل (آدم) بعدما صمت الأخير :

- « كبداية دعنى أسأل بضعة أسئلة .. هل قلبك فى مكانه الصحيح بصدد ليدى (آرابيللا) ؟ »

- « ليدى (آرابيللا) يا سيدى امرأة فاتنة .. وكان لى أن أفخر بأن أكون دانيًا منها أو أتكلم معها أو حتى أغازلها .. لكن - لأسباب تطول - أقول لك : لا .. لست واقعًا تحت سحرها .. بل ولربما أهابها قليلاً .. »

- « وما هى الأسباب التى تطول ؟ »

- « إننى أحب فتاة أخرى .. (ميمى واتفورد) ! ولدى كل الأسباب التى تجعلنى أعتبر ليدى (آرابيللا) عدوتها التى تبغى تدميرها .. »

- « إذن لك تهانىَّ يا بنى .. الحق أنها شابة فاتنة .. لم أر قط فتاة مثلها تجمع ما بين العذوبة والقوة .. كان هذا السؤال مهمًا لأن ما سأقوله لك قد يؤلم مشاعرك .. »

واتجه إلى الباب فاستوثق أنه ما من أحد هناك ، ثم أوصده بعناية .

* * *

الفصل التاسع عشر

أيض

سأله السير (ناتانييل) وهو يعود للجلوس :

- « هل أبدو لك جادًا ؟ »

- « بالتأكيد يا سيدى .. »

- « هل أنت واثق من أنك رأيت ليدى (آرابيللا) تنشب يديها فى عنق الزنجى ، وتهوى معه فى البئر ؟ »

- « كل الثقة يا سيدى ، وإلا لهرعت أعاونها .. »

- « هكذا نرى أن المرأة تكذب .. وعلينا أن نفهم لماذا تكذب .. لا يوجد ما يدعوها للخوف من (أولانجا) فقد مات .. أما أنت فقد رأيت كل شىء بعينيك .. وما كانت لتكتب لك هذا الخطاب ، لو لم تكن تحاول إقناع طرف ثالث بأنها فوق اللوم .. طرف لم يكن موجودًا وقتها .. »

- « هذا لا شك فيه يا سيدى .. »

- « والطرف الثالث الذى تهمها صورتها أمامه ، هو (كاسوول) ذاته .. كان عليها إقناعه ، بأنها لم تقذف بالزنجى فى البئر .. بل هو فعل بنفسه .. وكان عليها أولاً التأكد من أنك ستقبل هذه القصة الملفقة .. »

ثم استطرد سير (ناتانييل) قائلاً :

- « الآن دعنا نخرج عن السياق قليلاً .. لقد رأيت كهوفًا كثيرة من قبل فى (ديربى شاير) ، وهى مقاطعة اشتهرت بالكهوف ، كما رأيت كهوف (كنتاكى) وفرنسا .. إنها أماكن تمتاز بعمق كهوفها وضيق فتحاتها ، التى يهبط عبرها أجسر المستكشفين ، وفى الغالب لا يعود أكثرهم .. بعض هذه الكهوف يخيل إلىّ أنها كانت مأوى لبعض الأفاعى العملاقة من عصور بائدة ، وقد تكونت بالطرق الجيولوجية المألوفة ..

يقودنا هذا لنقطة أخرى أكثر عسرًا فى قبولها .. وهى قابلية الأيض على تبديل صور المادة .. لقد

اعتاد الناس أن يتكلموا عن حجر الفلاسفة ـ الذى يغير صور المعادن ـ فى القرون الوسطى .. وفى عصر العلوم هذا ـ إذ نتكلم عن العلم كمصدر للمعجزات ـ علينا أن نتحدث عن الأيض .. وأن نقبل كل الحقائق ونبحث عن تفسير لها .. تصور أن يقيم وحش كهذا فى أحد الكهوف معزولاً عن العالم الخارجى لأعوام طوال .. ثم مع التطور تتبدل غرائزه من حماية النوع ، والتغذية والتكاثر ، إلى ما هو أكثر تعقيدًا ، وسرعان ما تتبع القوة الحاجة .. ويكون لدينا وحش بالغ الذكاء ، لكنه معدوم الضمير والقدرة على ضبط النفس .. وبوسع وحش كهذا أن يزيل قطرًا كاملاً من الخارطة ..

« إن فهمى للأمور يتلخص فى أنه فى الماضى كانت هناك مخلوقات عملاقة استطاعت الحياة آلاف السنين .. وقد تداخل بعضها مع العصر المسيحى هنا .. ومع مرور هذا الزمن استطاعت تلك المخلوقات ببطء أن تنمو بعقلها ، حتى صارت أخطر ما عرف التاريخ ..

« لا بد أن أحد هذه المخلوقات استطاع أن يصل إلى (أيكة ديانا) ـ التى عرفت بـ (عرين الدودة البيضاء) ـ وتطوّر حتى وصل إلى ما يشبه البشر .. ليدى (آرابيللا) لها طباع الأفاعى .. لها من القوة ما يثير الريبة .. وترى فى الظلام .. وتملك شر الثعابين .. والنتيجة ....؟ »

ـ « حقًّا ما النتيجة ؟ »

ـ « أولاً يجب إبعاد (ميمى واتفورد) لأن حياتها فى خطر .. ثانيًا يجب تدمير الوحش .. »

ـ « برافو ! هذا هو وقت قرار كهذا .. »

لكن القانون لا يعترف بحلول مماثلة ، ولا يهمه إن كانت ليدى (آرابيللا) ثعبانًا أم لا .. إنها مواطن بريطانى له كل الحقوق ، ومن بينها الحق فى ألاَّ يقتله أحد .. إن الموضوع بحقَ شائك قانونيًا .. وكان عليهما أن يمحصا الأمور بعناية قبل اتخاذ قرار ما .. وقال (آدم) للرجل :

- « سنضع خطتنا فيما بعد .. أما الآن فعلينا أن نصمت .. إننى أسمع خطوات عمى فوق درجات السلم .. »

هنا هزّ سير (ناتانييل) رأسه موافقًا .

★ ★ ★

الفصل العشرون

الضوء الأخضر

حين آوى مستر (سالتون) العجوز إلى فراشه ، جلس (آدم) و(ناتانييل) يتكلمان فى غرفة المكتب .. وأشعل كلاهما سيجارًا ثم قال (ناتانييل) :

- « إن ذلك الوحش نصف البشرى فى الحفرة يمقتنا ويزمع تدميرنا جميعًا .. أنا وأنت وربما عمك .. وأرى أن الوقت قد حان كى نصارح عمك بكل ما نعرف عن ذلك الموضوع .. »

- « أنا معك يا سيدى فى هذا .. لكن تذكر أننا ضيفاه ، ولا بد من أن نضع اسمه وسمعته فى الاعتبار كما نضع سلامته .. »

- « ليكن يا (آدم) .. لكن علينا أن نرسم خطتنا بإحكام ، وبشكل لا يجعل تهمة القتل توجه إلينا ، لو تخلصنا من ليدى (آرابيللا) .. »

- « يبدو لى يا سيدى أننا فى وضع معقد .. وما حسبت يومًا أن مجابهة وحش قديم هى بهذه الصعوبة.. فما نواجهه هو امرأة بكل ذكاء النساء ، مع قسوة الغوانى وقوة الديناصورات .. لن تكون هناك ألعاب عادلة فى هذا الصراع .. يمكننا أن نثق بهذا » .

وقرر الرجلان أن يخلدا للنوم ، على أن يواصلا الكلام صباحًا ..

فى الصباح طرق (آدم) غرفة سير (ناتانييل) حاملاً عددًا كبيرًا من الخطابات فى يده ، وقال للرجل إذ صحا من النوم :

- « ثمة عدة خطابات هنا .. لكنى لن أرسلها ما لم أظفر بموافقتك .. »

واحمرّ وجهه فى شىء من حياء .. وأردف :

- « كما اتفقنا ، كان علينا أن نبعد (ميمى) ونتخلص من الوحش .. ولكى ننفذ هذا ، يجب أن يكون لـ (ميمى) حاميًا يعرفه العالم بأسره ، وفى ظنى أن هذا الحامى هو الزواج ! »

ببسمة أبوية قال السير (ناتانييل) :

- « لكى تتزوج لا بد من زوج ، وأحسب هذا الزوج هو أنت ؟ »

- « نعم .. نعم يا سيدى ..»

- « وهل هى موافقة ؟ »

- « لا أدرى يا سيدى .. وأحسب أن على أحدنا أن يسألها .. »

- « وهل هذه فكرة مفاجئة يا (آدم) ؟ وهل هو قرار مفاجئ ؟»

- « قرار مفاجئ حقًا يا سيدى ، لكنها ليست فكرة مفاجئة .. ولو وافقت فالباقى معروف .. »

- « ومن الذى سيسألها ؟ »

- « لقد .. فكرت فيك يا سيدى ! »

- « فليرحمنى الله ! يا لها من مهمة فى سنى .. وفى الصباح الباكر ! لكنى أرحب بها يا بنىّ » .

هكذا تمَ الاتفاق ، وسرعان ما انطلق سفير الحب إلى دار (ميمى) ، وتمَ كل شىء بسهولة غير متوقعة .. لقد كانت الفتاة تحب (آدم) بحق .. ودهشت لأنه يحبها .. ووافقت على أن تكون الزيجة سرية نظرًا لما رآه (آدم) ..

ثم إن (آدم) والسير (ناتانييل) سافرا إلى لندن ، وبفضل نفوذ الأخير ، تمكنا من ترتيب إجراءات زواج غير مُعلن فى مطرانية (كانتربورى) .. ثم أبعد (آدم) عروسه إلى جزيرة (مان) ، حيث أمل أن يضع حاجزًا من الماء بينها وبين الدودة البيضاء ..

* * *

وحين عاد (آدم) لاحظ أن السير (ناتانييل) قد قام فى غيابه بإغلاق جلّ الأبواب والنوافذ فى القصر ، فلم يبق سوى باب واحد .. كما أسدل ستائر سميكة على النوافذ ، فلما سأله (آدم) عن سبب هذا ، قال همسًا :

« انتظر حتى نغدو وحيدين .. ولسوف تتفق معى على صواب هذه الفكرة .. » .

وفى غرفة المكتب التى أظلمتها الستائر ، جلس الرجلان .. وقال السير (ناتانييل) :

ـ « عليك بأقصى درجات الحذر .. فبرغم أن زواجك قد كان سريًا وكذا اختفاءك ، فإن كلا السرين قد أذيعا ..»

ـ « وكيف ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكننى بدأت أكون رأيًا .. »

ـ « وهل تعرف هى ؟ »

ـ « الدودة البيضاء ؟ نعم تعرف .. »

وأطفأ سير (ناتانييل) الضوء الكهربى ، فساد ظلام كئيب ، واقتاد (آدم) إلى مقعد أمام النافذة الجنوبية .. ثم رفع جزءاً من الستار ليرى (آدم) ما بالخارج ..

وارتجف (آدم) لما رآه ، فقال صديقه بصوت هادئ ملطف :

ـ « لا خطر .. فى الوقت الحالى .. يمكنك الكلام ! »

لم يكن ما يراه مخيفًا بشكل خاص إلا لمن يملك خلفية عن الموضوع .. وبرغم أن الظلام كان دامسًا

بحق ، حتى لم يعد سوى القليل مما يمكن رؤيته ؛ كانت هناك أيكة من أشجار عتيقة عند جانب البرج الغربى ، وفوق قممها كان ضوء أخضر غريب .. شىء كإشارة الخطر عند مزلقان السكك الحديدية .. فى البدء بدا ساكنًا ثم أدرك (آدم) بعد قليل أنه يرتجف ويهتز ..

وعلى الفور تذكر ذلك الضوء الذى رآه فوق البئر ، حين كان فى أيكة (ديانا) .. تذكر صرخة الزنجى ووجهه الملىء بالذعر إذ هوى فى البئر .. ولا شعوريًّا تحسست يده المسدس .. ثم أدرك أنه لا خطر هنالك .. حاليًا ..

أضاء سير (ناتانييل) النور ثانية ، وفى ضوئه المريح واصلا الكلام .

* * *

الفصل الواحد والعشرون

على مسافة دانية

قال (ناتانييل) :

- « إنها تملك مكرًا شيطانيًّا .. فمنذ رحلت أنت اعتادت أن تتردد على الأماكن التى كنت تقصدها بانتظام .. يبدو أنها سمعت عن زواجك ورحيلك معًا .. يخيَّل إلىَّ أنها لا تعرف أين تجدك و(ميمى) .. لكنها تبحث بعناية ، إن الدودة البيضاء تملك بالتأكيد من الإمكانات ما يناسب أغراضها .. ويمكنها الوصول لأية نافذة تريد .. ويظلّ من الحكمة أن ندارى أنفسنا حتى لاتعلم شيئاً عن رحيلك أو عودتك .. »

- « هل بوسع واحد منا يا سيدى أن يحاول رؤية هذا المخلوق من مسافة دانية ؟ أنا راغب فى المخاطرة .. ولا أظن أن أحدًا قد رآها عن قرب وعاش ليحكى ما رآه .. »

رفع سير (ناتانييل) يدًا متعقلة ، وقال :

- « رباه ! إلام تلمّح يا بنىّ ؟ فكر فى زوجتك وكل من تحبّ .. »

لكن (آدم) كان مصرًا .. وخطر للسير (ناتانييل) أن الأمر لن يكون بهذه الخطورة .. إن الدودة البيضاء لا تملك قوى خارقة للطبيعة ، وليس بوسعها أن تؤذيهما ما لم ترهما أولاً .. وهكذا اتفق الرجلان على الذهاب معًا ..

خرجا من الباب الخلفى ، وكان الظلام دامسًا ، حتى إنهما اضطرا أحيانًا إلى تلمس جذوع الأشجار ، لكنهما كانا قادرين على رؤية الضوء الأخضر البهيم من بعيد .. وشعر الرجلان برهبة وقد أدركا ما هما مقبلان عليه من خطر ..

وهمس السير (ناتانييل) فى أذن (آدم) :

« لنتوخَ الحذر .. نحن لا نعرف شيئًا عن قدرات هذا الوحش على الإبصار أو الشمّ أو الرؤية .. لذا أرى أن نلتصق بظلال الأشجار .. »

هزّ (آدم) رأسه موافقًا ، وغادر الرجلان الدغل أخيرًا ، فشعرا كأنما قد خرجا من الظلام إلى ضوء الشمس.. حولهما ظلام لكنه كاف لرؤية الموجودات..

ونظر (آدم) لأعلى ، فوجد الضوء الأخضر حيث هو .. كأنه فوق عمود شامخ ، وإلى جواره تتدلى كتلتان لهما لون أبيض ، كأنهما ذراعان أثريتان .. وإلى أنف الرجلين تصاعدت رائحة كريهة ، كتلك التى كانت تتصاعد من البئر فى (أيكة ديانا) ..

ثم تبينَا ما يشبه قصبة الرمح ذات اللون الأبيض الساطع .. كان يتحرك ببطء - والضوء الأخضر يشع منه - وينحنى ليتوارى ما بين الأشجار .. كان هذا هو رأس الثعبان ..

دنا الرجلان أكثر فرأيا جذع الأفعوان ، وكان عبارة عن خرطوم طويل هائل الحجم يلتف حول نفسه مرارًا ، صانعًا قاعدة يتحرك الرأس فوقها ..



دنا الرجلان أكثر فرأيا جذع الأفعوان ، وكان عبارة عن خرطوم طويل هائل الحجم يلتف حول نفسه مرارًا ..

فرّ الرجلان حريصين على عدم إحداث ضوضـاء .. سـواء بخطواتهما أو بالغصـون التى راحت تلطم وجهيهما .. ولـم يكفـا عـن الركـض ، حتـى وجـدا نفسيهما أمام (برج القيامة) .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

فى بيت العدوّ

فى الصباحِ التـالى كـان (ناتـانييل) فـى غرفـة المكتب منهمكًا فى الكتابة ، حين جاءه (آدم) حـاملاً خطابًا .. وقال :

- « إن سعادتها لا تضيّع وقتًا .. قد بدأت العمل بالفعل .. »

- « ما الموضوع ؟ »

قدّم له (آدم) المغلّف الذى يحمله ، وكان مظروفًا أنيقًا من ليدى (آرابيللا) .. وقال :

« لكن كيف عرفت أننى هنا ؟ هى لم ترنى أمس ..»

قال سير (ناتانييل) فى هدوء ورزانة ، شأنه حين يتعلق الأمر بصراعات الذكاء :

- « دعك من هـذا يا بنىَ .. ثمـة أسرار كثيرة لا نفهمها ، ولربما كان من الخير لنا أنها تعرف .. إن لها طباع الأفاعى وميلها للخيانة .. ثم إنها لا تهاجم أبدًا حين تستطيع الفرار ، والخديعة هى الصيغة التى تفضلها برغم قوتهـا المرعبة .. ما هو محتوى الخطاب ؟ »

- « تدعونى و(ميمى) إلى شرب الشاى فى دارها ، وتتمنى لو تشرفها أنت كذلك بهذه الزيارة ! »

- « سنقبل هذه الدعوة يا (آدم) ! »

- « لكن الأمر واضح .. لا يمكن أن .... »

- « إنها من قواعد الدبلوماسية القديمة يا بنى أن تحارب فى الأرض التى تختارها أنت .. ونحن بقبولنا هذه الدعوة نجعل الأرض أرضنا ، ونربكها لأنها لا تتوقع هذه الموافقة السهلة منا ، ولسوف تلعب مخاوفها دورًا هنا .. »

* * *

حين دنا الموعد سألت (ميمى) السير (ناتانييل) عن الطريقة التى سيذهبون بها .. فقال :

- « نريد أكبر قدر من الصخب ، وأن يعرف الجميع أننا ذاهبون ! ولا تندهشى من أن يصل بريدك إليك ، بينما أنت فى (أيكة ديانا) ! »

وانطلق أصدقاؤنا بعربة يجرها جوادان نشيطان ، سرعان ما قطعا الأميال المعدودة التى تفصلهم عن (أيكة ديانا) .. فلما وصلوا قال لها سير (ناتانييل) :

- « لا أعتقد أن خطرًا ما يتهددنا اليوم .. لقد أعددنا لكل شىء عدته .. ستحاول الدودة البيضاء أن تؤذينا بالحيلة ، لكن ليس بالقوة ، برغم أن لديها مخزونًا هائلاً منها .. ليس اليوم ! وعلى كل حال أرجو أن تنفذى أى أمر نصدره لك دون مناقشة .. ها هى ذى البوابة .. احتفظى برأسك لأن هذا هو نصف المعركة »

رحبت بهم ليدى (آرابيلا) بحرارة ثم اقتادتهم إلى غرفة أعدّ بها الشاى ..

كان (آدم) متوترًا بحق ، وراح ينظر حوله ، فوجد فى طرف القاعة بابًا حديديًا ، له ذات لون ومظهر الباب الذى اجتازه (أولانجا) فى تلك الليلة.. راح يرمقه فى قلق ولاحظ أن السير (ناتانييل) يفعل نفس الشىء ..

بدأت ليدى (آرابيلا) تحرك مروحتها فى عصبية ، وشكت من الحرّ ، وطلبت من خدمها أن يفتحوا الأبواب الخارجية ..

بدا الذعر على وجه (ميمى) لأن دخانًا كثيفًا بدأ يتسرب إلى الحجرة ، وازداد كثافة أكثر فأكثر .. كانت له رائحة مهيجة تدفعك إلى السعال دفعًا ..

دون أن تدرى ما تفعل هرعت (ميمى) - وقد أوشكت على الاختناق - إلى الباب الحديدى ففتحته ، وكانت ستارة حريرية تسده فمزقتها واندفعت للداخل ، وقد غابت عنها حقيقة أنها لا تبصر شيئًا .. وهرع (آدم) بدوره ليمسك بذراعها وحسنًا فعل ، لأن أمامها كانت تلك البئر العميقة التى هوى فيه (أولانجا) ، والتى ما كانت لتراها فى الظلام ..

كانت الأرض مغطاة بمادة زيتية زلقة ، حتى إن (آدم) اضطر إلى أن يلقى بنفسه إلى الوراء كى يجذبها إليه .. وسقطا على أرض القاعة قبل أن ينهض (آدم) ويغلق الباب ..

كانت ليدى (آرابيللا) محتفظة بهدوئها كأن شيئًا لم يكن ، وإن شحب وجهها بشدة حتى ابيضَّ كالورقة .. وكذا ظل سير (ناتانييل) متماسكًا مسيطرًا على رباطة جأشه ، وهمس فى أذن (آدم) إذ عاد لمقعده :

- « إن الهجمة الرئيسية آتية .. عندما أعطيك الإشارة اتجه للباب ومعك زوجتك .. لا تمش .. اركض !! ولا تخش أن تبدو مضحكًا ..»

انتهى الشاى وسط توتر عظيم .. وفجأة تراقصت الأضواء ثم غابت وساد الظلام .. صرخ السير (ناتانييل) وهو يجذب (ميمى) من يدها :

- « سريعًا ! »

وجذب (آدم) ذراعها الأخرى ، وجروا نحو الباب الخارجى ، الذى كان الخدم على وشك إغلاقه .. كان العثور عليه عسيرًا فى هذه الظلمة لكنهم وجدوه .. وهرعوا نحو العربة التى كانت تنتظرهم بالخارج .. دفعوا (ميمى) دفعًا إلى داخلها .. بل رموها رميًا .. ثم أمر (آدم) الحوذى بالانطلاق بأسرع ما يمكن .. تاركين وراءهم ضوضاء لا تُصدَّق من صراخ الخدم ..

وطوَّق الرجلان خصر (ميمى) ليحمياها من اهتزازات العربة ، بينما الخيول تركض بأعتى ما تستطيع ، وللحظةً ارتفعت الأرض أمام الخيول ثم هبطت ثانية .. لكن الخيول تمكنت من تحاشى المرتفع ودارت حوله ..

وأخيرًا وصلوا بعد جهد مريع إلى (برج القيامة) ، وكان ضوء القمر المسالم الهادئ يغمر المكان ، كأن ما مروا به كان حلمًا مرعبًا .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

عرض مدهش

كلما فكرت (ميمى) فيما حدث لهم ، كلما شعرت أكثر أن هذا كله لم يكن حقيقيًا .. وفى الوقت نفسه كان عسيرًا أن تراه على أى ضوء آخر .. تصوَّر أن تحكى هذا لأحدهم .. تقول له إنك قد تناولت الشاى أمس مع دودة قديمة لم تنقرض ، وكان الخدم الذين يقدمون الشاى رجالاً عصريين !

كان السير (ناتانييل) قد وصل إلى استنتاج مؤداه أن ليدى (آرابيللا) ـ لسبب لا يفهمه ـ قد غيرت خططها ، وهى حاليًا مسالمة .. وقد عزا التبدل فى مسلكها إلى ازدياد تأثيرها على (إدجار كاسوول) وخضوعه لسحرها ..

والحقيقة هى أن المرأة قد زارت (كاسترا ريجيس) صباحًا ، ودارت بينها و(كاسوول) محادثة طويلة ، طرح فيها فعلاً موضوع توحيد مستقبلهما .. وبرغم أن الأخير لم يكن شديد الحماس ، فقد كان مهذبًا حتى إن ليدى (آرابيللا) هنأت نفسها فى أثناء العودة إلى (أيكة ديانا) ، على ما حققته من تخطيط لمستقبلها .. وظهر هذا فى خطاب بعثت به إلى (آدم سالتون) تقول فيه :

« **عزيزى مستر سالتون** :

« ثمة مسألة تتعلق بالأعمال ، لا أدرى إن كان بوسعك أن تسدى لى النصح فيها .. لقد كنت راغبة فى بيع (أيكة ديانا) ، ولا أخفى عليك أننى أحب هذا المكان وأشمَ فيه رائحة زوجى العزيز المرحوم ، وذكريات أول زواج لى وأنا بعد فتاة شابة .. لهذا وددت لو بعت المكان بسعر مناسب لشخص أمين عزيز إلى نفسى .. وأجرؤ على القول بأنك هذا الشخص لكنى لا أجسر على التمنى إلى هذا الحدَ ..

ربما كان أحد أصدقائك فى أستراليا راغبًا فى اقتناء منزل أثرى ، يحمل كل عظمة وتاريخ إنجلترا من عصر الرومان والكلت حتى اليوم ، وبرغم هذا هو DERNIER CRI (بالفرنسية : على آخر طراز) ، ولسوف يكون محامىَ مستعدًا لشرح كل التفاصيل القانونية .. وتكفينى كلمة منك بقبول أو رفض العرض ، واغفر لى هذا التدخل ..

المخلصة (آرابيلا مارش)

وقرأ (آدم) الخطاب مرارًا ثم توجه لـ (ميمى) وصارحها بأنه راغب فى قبول العرض ، فقالت :

- « يا عزيزى .. أنا موافقة على كل ما تراه وتختاره .. فنحن بين يدىَ الله الذى هدانا ولسوف يهدينا إلى حيث يشاء .. »

وفى غرفة المكتب استشار (آدم) السير (ناتانييل) حول شراء (أيكة ديانا) ، فصاح مندهشًا :

- « فليرحمنى الله ! لماذا بحقّ السماء ترغب فى شىء كهذا ؟! »

- « ألن يُسهل علىّ تدمير عرين الدودة البيضاء لو غدا ملكى ؟! »

فكر الرجل طويلاً وفى عمق قبل أن يقول :

- « الحق أن كلامك فيه كثير من المنطق الحسن ، برغم أنه أثار رعبى فى البداية .. إن الضيعة ذات قيمة تاريخية ولسوف يزداد سعرها مع الوقت .. ولو كان المال ينقصك لهذا ، فأنا موافق على أن أعطيك ما تريد .. »

- « شكرًا يا سيدى .. إن معى من المال ما يكفينى ويزيد ، وقد سرنى أنك موافق .. »

وهكذا - دون إبطاء - أسرع (آدم) بشراء العقار ، وحين عرف عمه بالأمر سرّ لأن وريثه ابتاع عقارًا بهذه الأهمية ، من شأنه أن يرفع اسمه فى المنطقة كلها ..

وفى الصباح التالى سأله سير (ناتانييل) عن الطريقة التى يزمع بها تدمير الدودة البيضاء .. وقال له :

« إن مهمتك التى حملتها على كاهلك عسيرة حقًا أقرب إلى مهام (هرقل) .. فحجمها وقوتها وما لا نعلمه من خصالها كلها ضدك .. يبدو أن الدودة البيضاء تسيطر على كل قوى الطبيعة ما عدا النار .. لكن كيف تؤذيها النار ؟ ما عليها إلا أن تغطس فى الأرض ؛ عندها لن تملك إيذاءها ، حتى لو امتلكت كل مناجم الفحم فى العالم .. يبدو أن لديك خطة ما ، فهل لى أن أعرفها ؟ »

ـ « حقًا يا سيدى لكنها قد لا تصمد للتجربة .. عندما حدثت متاعب البورصة ، سرت إشاعة فى لندن أن المصرف سيُهاجم بغرض التخريب .. وطلب المديرون رأى بعض الخبراء ، فكان رأيهم أن خير وقاية ضد النار ـ وهى ما كانوا يهابونه ـ ليست الماء بل الرمل .. وهكذا جلبوا من رمال البحر الدقيقة ـ النوع الذى يضعونه فى الساعات الرملية ـ ما وضعوه فى كل أرجاء المبنى .. خاصة مواضع الخطر ..

ـ « والفكرة التى واتتنى هى أن أجلب كمية هائلة

من الرمال أسكبها فى تلك البئر فى (أيكة ديانا) ، وبهذا حين تحاول ليدى (آرابيللا) فى صورة الدودة أن تعود إلى ملجئها ؛ لن تستطيع لهذا سبيلاً .. إن عمق البئر هائل ولسوف يكون احتكاك جسد الدودة بالرمال فائقاً لأى تخيل .. »

ـ « لحظة .. ما جدوى الرمال فى تدميرها ؟ »

ـ « لن تدمرها .. فقط ستكبلها حيث هى إلى أن أنفذ الجزء التالى من خطتى .. وهذا الجزء هو أصابع من الديناميت يتم إلقاؤها فى البئر ! »

ـ « ولن تحتاج إلى فتيل أو ما يشبه هذا لتفجر الديناميت ؟ »

ـ « ليس فى أيامنا هذه ! » ـ وابتسم (آدم) ـ « لقد جربوها فى نيويورك حين وضعوا ألف رطل من الديناميت فى علب ، وبشرارة بارود صغيرة أشعلوها ، فأدى الارتجاج إلى تفجير الديناميت ، وقد حسب غير الخبراء أن الارتطام سيدمّر كل زجاج النوافذ فى المدينة .. لكن الانفجار اكتفى بزحزحة

الصخور فى موضعها .. لا أكثر .. وهكذا نتحـرر من وحش مريع .. »

وغادر (آدم) المكان بحثاً عن زوجته .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

المعركة الأخيرة

كانت ليدى (آرابيللا) قد أصدرت تعليمات لمحاميها بسرعة نقل الملكية فى (أيكة ديانا) ، بحيث لم يضع وقت طويل حتى حصل (آدم) على الضيعة .. وسرعان ما أمر وكلاءه بجلب كومة هائلة من رمال (ويلش) الناعمة إلى المكان ، كما راح يخزّن المتفجرات فى كوخ ذى سقف معدنىّ ابتناه خلف (أيكة ديانا) .. ولم يرتب أحد فى غرضه إلا ليدى (آرابيللا) ، لكنها كانت فى قمة الانشغال بسبب إعدادات الانتقال ، وترتيبات زواجها من (كاسوول) كما تريد له ..

راح جبل الرمال ينمو بسرعة ، ودنت لحظة الهول الآتى بسرعة ..

وذات صباح قابل ليدى (آرابيلا) متجهة نحو القلعة ، فتجرأ وطلب أن يرافقها إلى هناك .. وسره أن وافقت على الفور.. ومعًا اتجها إلى غرفة البرج ، ودهش (كاسوول) من زيارة (آدم) له لكنه لعب دور المضيف ببراعة ..

اصطحبهما إلى البرج ، حيث راح يشرح لهما كيفية تحليق طائرته الورقية ، وكيف تستجيب الطيور على الفور لرفع وخفض الطائرة ..

فى الوقت ذاته فى مزرعة (ميرسى) كانت الأمور هادئة .. وإن عانت (ليلا) الوحدة بسبب افتقاد ابنة عمها ، وبدأت تفكر فى أن عليها بدورها أن تجد رفيق حياة .. لكن ما كان هناك الكثير فى هذا الصدد فى مزرعة (ميرسى) .. إن (كاسوول) يثير رعبها ، لكنه عريس ممتاز .. ربما لا يمكن أن تتوقع مثله أبدًا ..

لكنها بدأت ترى أن الأمور لا توحى باطمئنان .. إن ليدى (آرابيلا) موجودة دومًا جوار الرجل ،

وعلاقتها به تزداد عمقًا .. ثم إن الرجل بارد جدًا وينافى بالتأكيد فكرتها الشابة عن السعادة .. لكنها ظلت فى سرها تتمنى أن يحدث ما يبدل مجرى الأمور ..

وبمرور الوقت ازداد شعورها بالوحشة والشوق إلى (ميمى) المتفهمة الحنون العطوف .. وأدركت بحقّ مبلغ خسارتها .. شحب لونها وأحاطت هالات سوداء بعينيها ، واعترتها رجفة لم تستطع إخفاءها ، وبدا لها المستقبل موحشًا رهيبًا .. كان هذا حين وصلتها رسالة من (كاسوول) يسألها أن تسمح له باحتساء الشاى فى دارها غدًا .. وما كان لها أن ترفض دعوته التى تهيبتها كثيرًا ..

وفى الموعد المحدد وصل (كاسوول) فصارت حالتها العصبية مدعاة للشفقة ، وإن سرها أن خادمه المخيف (أولانجا) لم يلحق به ليثير فزعها ، وكانت قد تعمدت اختيار كل ما هو رخيص أو قبيح من أدوات الشاى والأطباق ، لتجعله يتبين الفارق الاجتماعى المهول بينهما ..

كان وجه (كاسوول) فولاذيًا كعادته أو أكثر .. وراح بعين ثابتة ثاقبة يحدق فى عينيها ، فارتجفت لما سيحدث بعد هذا ، مادامت هذه هى البداية !

وبلا إنذار ، بدأت الحرب النفسانية بين الاثنين .. حرب النظرات .. وإذ رأى الرجل أن الفتاة هشة وحيدة امتلأ بيقين النصر ، وازدادت نظراته ثباتًا .. كانت بطبعها غير أنانية لا تقدر على الاستبسال فى معاركها الخاصة ، كما تقدر فى معارك من تحبهم .. وبدأت أهدابها الكثيفة تهوى على عينيها وعضلاتها تسترخى ..

هنا اجتازت (ميمى) ـ بمعجزة ما ـ المدخل عبر الحديقة ..

وكأنما منح دخول (ميمى) (ليلا) حياة جديدة ؛ تحفزت وتحركت فيها إرادة القتال .. وقابلت (ميمى) نظرات (كاسوول) بمثلها ، فبدا عليه الارتباك ،

وتراجع للوراء .. تراجع حتى المدخل .. ثم تعثر وهوى على الحصى ..

عندها فقط خارت قوى (ليلا) ، فسقطت بشهقة حارة على الأريكة .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

وجهًا لوجه

اغتمت (ميمى) كثيرًا لرؤية (ليلا) فى حالة كهذه ، بالإضافة إلى أن الفتاة كانت ذاهلة تمامًا ، وقد جربت معها (ميمى) كل أساليب الإفاقة المعهودة دون جدوى .. بالواقع بدا أن حالتها تزداد سوءًا ، وراحت حركة صدرها تزداد وهنًا ، ولونها يزداد شحوبًا .. وانتاب (ميمى) الهلع ، حين أدركت أن ابنة عمها قد ماتت ..

ازداد الغسق قتامة ، ودنت ظلال المساء .. وجلست (ميمى) على الأرض تطوق بذراعيها (ليلا) غير شاعرة بازدياد الظلام .. لا تدرى كم مرّ من الزمن فى جلستها ، فقد بدا لها أنها قضت دهورًا ، والحقيقة هى أنها لم تستغرق سوى نصف ساعة ..

كان ما أعاد لها صوابها ، هو أنها شعرت بيد الفتاة دافئة فى كفها .. أضاءت النور فوجدت أن عينى الفتاة مفتوحتان كمن ماتت بالتأكيد ، لكن فيهما نظرة ما كلها استغاثة ودعاء ..

نهضت وقررت أن تتجه حالاً إلى (كاسترا ريجيس) لتواجه (كاسوول) بحقيقة أنه ـ بشكل ما ـ تمكن من قتل (ليلا) .. لسوف يدفع الثمن ..

دنت من القلعة فلم تر أضواء إلا فى غرفة البرج .. وأدركت أن (كاسوول) هناك ، فدخلت من الردهة ، وتحسست طريقها عبر الدرجات حتى وصلت إلى الباب المفتوح .. وعبر فرجته استطاعت أن ترى (كاسوول) يذرع المكان جيئة وذهابًا ويداه خلف ظهره ..

فتحت الباب ودخلت دون أن تقرعه ، فاستدار مندهشًا لرؤيتها هنا .. ولبرهة وقف الاثنان يتبادلان النظرات فى صمت تامّ .. وكانت أول من تكلم :

ـ « أيها القاتل ! لقد ماتت (ليلا) !! »

ـ « رباه ! ماتت ؟ هل أنت متأكدة ؟ متى ؟ »

ـ « بعد ما تركتنا .. أنت تعرف أن هذا حقيقى ، كما تعرف أن الله يرانا الآن .. لقد قتلتها ! »

ـ « كونى حذرة فى كلامك يا امرأة ! »

ـ « بل سأقولها مرارًا لأننى أعرف ما أقول .. وأعرف أنك وتلك المرأة الأخرى ، قد اشتركتما فى تعذيب تلك العزيزة البريئة .. أنت لا ولىَّ لك إلا الشيطان وطائرتك الحمقاء .. وأعرف أن اسمك يُنادى الآن فى المحكمة السماوية العظمى ، فاندم الآن قبل ألا ينفع الندم .. وقبل أن تغيب فى العذاب الأبدىّ ».

* * *

كان موت (ليلا) مفاجأة قاسية لكل محبيها ، وقد ترك (آدم) زوجته وجدها يعدان الطقوس النهائية للعزيزة المتوفاة ، وقرر أن يمضى الوقت فى إعداد مصيدة الدودة البيضاء التى خطط لها .. ملأ البئر بالرمال الناعمة ، ثم نثر فيها عبوات الديناميت .. وكان يعاونه فى عمله السير (ناتانييل) وطاقم من الرجال ..

أما (ميمى) فراحت تمضى الوقت فى النظر من النافذة ليلاً ، تجتر أحزانها ، ولئن كان فى موت (ليلا) نفع ما ، فهو أنها لم تعد تهاب الدودة البيضاء ..

فى أثناء نظرها من النافذة ، رأت شيئًا أبيض يزحف هنالك .. وخيل لها أن هذه ليدى (آرابيللا) ، فتراجعت غريزيًا لتختلس النظر من وراء الستار ..

كانت المرأة تمشى حثيثًا ، وتختلس النظرات إلى الوراء كأنما تتهيب شيئًا .. هنا خطر لـ (ميمى) أنه من الخير أن تقفو أثر المرأة ، وسرعان ما ارتدت عباءة سوداء وغادرت الدار ..

راحت تمشى بين الأشجار الكثيفة ، لا يهديها سوى ثوب المرأة الأبيض ، وأدركت أن ليدى (آرابيللا) تتجه نحو (كاسترا ريجيس) .. لكن سرعان ما فقدت أثرها فى الظلام .. فقررت أن تتجه إلى (كاسترا ريجيس) على كل حال ، وتترك للظروف أن تحدد مسارها ..

فى الوقت ذاته كانت ليدى (آرابيللا) قد رأت (ميمى) ، وتوارت حتى تعرف وجهتها ، ثم راحت

تتبعها فى إصرار .. وهو نموذج للصياد حين يمسى فريسة .. واتجهت (ميمى) الغافلة إلى البرج ، وارتقت درجات السلم إلى حيث كان (إدجار كاسوول) ينتظر وحده ، غارقًا فى خواطر سوداء عن موت (ليلا) واتهام (ميمى) له ..

لم يسمع طرقتها الواهنة على الباب ، مما جعلها تحشد شجاعتها وتفتح الباب بقوة ..

هنا وجدت نفسها فى مأزق لم يخطر ببالها قط !

* * *



فى الوقت ذاته كانت ليدى (آرابيللا) قد رأت (ميمى) ، وتوارت حتى تعرف وجهتها ..

الفصل السادس والعشرون

فوق سقف البرج

بدأت العاصفة الدانية تعلن عن نفسها ، ليس فقط فى الطبيعة ، بل وفى طباع وأفئدة الناس ، وسرى الاضطراب الكهربي فى السماء إلى الحيوانات وخاصة أذكاها .. وكذا كان (إدجار كاسوول) برغم برودة طباعه وأنانيته .. وحتى ليدى (آرابيللا) التى كانت تحمل طباع الأفاعى ؛ لم تخلُ من مشاعر الأنثى التى كانت دومًا جديدة برغم قدمها ...

وجلست (ميمى) فى منأى عن الرجل ، وهى تشعر بالعاصفة تتزايد .. وسمعته يتكلم فانتابها الهلع .. إن الرجل قد جنَّ تمامًا ، وصرعه جنون العظمة حتى ليحسب أن لديه ـ والعياذ بالله ـ قدرات العلىّ القدير ، وهى حالة يعرفها الأطباء النفسيون جيدًا فى

مصحاتهم .. وتدل على دنو النهاية .. ومن الغريب أنه حتى هذه اللحظة لم يتبين وجود ليدى (آرابيللا) .. وقال لـ (ميمى) دون تفكير :

ـ « تعالى معى إلى سطح البرج .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « ثمة تجارب مهمة .. تجارب شائقة أرغب فى أن تريها .. تجارب على الطائرة الورقية .. »

« سآتى معك .. »

قالتها ببساطة ونهضت ، وهو يتبعها نحو الدرجات المنحدرة التى تقود إلى السطح .. فالحقيقة هى أنها لم تعد تهاب قدراته العقلية ، فقد برهنت لنفسها على أنها قادرة على قهرها .. أما عن جنونه فلا تهابه أيضًا ..

وسمعت ليدى (آرابيللا) كل ما قيل فجن جنونها .. ثمة شىء ما بين الاثنين بلا شك ، وكلامهما يوحى بوئام بعد عداوة طالت .. وهذا من شأنه هدم خططها كلها ! وهكذا قررت أن تتبعهما إلى السطح العاصف حيث الريح الثائرة تطيِّر كل شىء ، وتتوارى هناك ..

كان الخيط الذى ربطت به الطائرة الورقية ، والياى الذى يتحكم فى إرسال الأشياء لها ، يحدثان أصواتًا مبهمة موحشة ، راحت ـ مع الجو المتوتر ـ تخلف نوعًا من التناغم كأنما ليصاحب المأساة التى توشك على الحدوث ..

وراح قلب (ميمى) ينبض بحدة .. فقد رأت فى أضواء غرفة البرج ، وجه (كاسوول) وعليه علامات التركيز الذى تراه حين يزمع استعمال قدراته التنويمية .. وكان حاجباه الأسودان يشكلان ساترًا من تحته تلتمع عيناه منذرتين بالخطر ..

كان ضوء غامض يتوهج فى السماء الآن ، برغم أنه لم يكن هناك من برق .. وقررت (ميمى) أن تتوارى مؤقتًا فى حفرة بالجدار .. لكن (كاسوول) كان قريبًا منها جدًا ، وراح يتكلم بصراخ عال يشى بجنونه الذى يتزايد من دقيقة لأخرى ، ولعب صخب الطبيعة من حوله دورًا فى جعل حالته العقلية تزداد تدهوراً .. كأنما أحسّ أن ثورة الطبيعة هذه هى امتثال لأوامره وحالته النفسية ..

وغلى الدم فى عروق ليدى (آرابيللا) ، وأحست بالحقيقة .. لا جدوى ولا أمل فى الزواج من هذا الرجل .. إنه مخبول تمامًا ، وبالإضافة لهذا من الواضح أنه يهيم بـ (ميمى) .. إذن عليها الانتقام منه .. عليها أن تقتاده إلى عرين الدودة البيضاء ، ولكن كيف ؟

إن الحل الوحيد يكمن فى الطائرة التى لا يستطيع الخلاص من نفوذها عليه .. تسللت بحذر وتمكنت من فك خيط الطائرة الذى يثبتها إلى البرج ، من ثم غادرت المكان مسرعة ، وإن ظل الخيط يمرّ بالبرج .. ومشت ما بين القصرين حتى بلغت بوابتها الخاصة .. وأسرعت إلى البئر المخيفة ..

لم يبق سوى انتظار قدوم سيد (كاسترا ريجيس) .

* * *

الفصل السابع والعشرون

انتهاء العاصفة

كان (كاسوول) و(ميمى) مازالا ينتظران على سقف البرج ، لا يريان بعضهما .. ولم يكن لدى (كاسوول) ما يُقال ، بينما كان لدى (ميمى) الكثير منه .. وبعد صمت طال قررت (ميمى) أن تبدأ الكلام .. قالت :

ـ « مستر (كاسوول) ـ بصوت عال حتى يصله صوتها وسط كل هذه الكهرباء وهزيم الرعد ، وجاءها ردّه فلم تتبينه ، لكنه على الأقل جعلها تعرف أين هو بالضبط فى هذا الظلام ـ إن البوابة مغلقة .. فهلا فتحتها لى لأننى لا أجدها ؟ »

وكانت تتكلم وهى تتحسس المسدس الذى أعطاها إياه (آدم) للاستعمال فى حالات الطوارئ ، وكانت تداريه فى صدرها .. كانت تشعر بالخطر .. بالحصار ..

وكذا كان (كاسوول) الذى تحركت كل حواس التحفز الحيوانى عنده .. وبصوت شرس كالفحيح ، وبصوت تتطاير مقاطعه مع الريح قال :

ـ « أنت جئت هاهنا بكامل إرادتك .. وعلى كل حال أنا لن أعوق حريتك .. يمكنك الرحيل ولكن اعتمدى على نفسك .. عليك أن تجدى المخرج وحدك ! »

بتهذيب خطر أجابت :

ـ « أنا راحلة .. لكن (آدم) زوجى ستكون له كلمتان معك .. ويمكنك وقتها أن تلوم نفسك .. »

أشعل المزيد من المغنيسيوم ، فكان هذا مناسبًا لها ، لأنها استطاعت فى الضوء أن تتبين المدخل ، وسرعان ما اجتازته مستعينة بحاسة الاتجاه ، بعد ما ساد الظلام من جديد ..

راحت تركض فى الجادّة قاصدة (لسر هيل) .. دارها ..

عرفت من الخدم أن (آدم) قد عاد للدار وأنه فى مكتبه ، فصعدت إليه مسرعة .. بدا عليه السرور

لرؤيتها لكنه تفحص وجهها بعناية .. وأدرك أنها كانت فى مشكلة ما ، فأجلسها على الأريكة جوار النافذة .. وجلس جوارها يصغى إلى التفاصيل التى تحكيها ، دون أن يتدخل بأسئلة أو تعليقات .. وفى النهاية قال لها :

- « غداً أذهب لأرى (كاسوول) وأعرف ما تفسيره لكل هذا .. »

- « أتوسل إليك ألا تتشاجر معه .. لقد ذقت ما يكفى من ألم فى الفترة الماضية ، مما يغنينى عن القلق عليك .. »

- « سأحاول يا عزيزتى .. لكن فليساعدنى الله على ذلك .. »

ثم قال محاولاً جعلها تنسى ما حدث :

« هذا الـ (كاسوول) يلعب لعبة خطرة بحقّ .. إن طائرة تطير من البرج ، فى ليلة كهذه ، لجنون مطبق .. لسوف تجتذب البرق إلى حيث يعيش الرجل .. إن الطائرة فى السماء وسط كل هذه السحب

المشحونة .. ولسوف تسرى الكهرباء عبر الخيط ، وتضرب (كاسترا ريجيس) بما يفوق ضربة عشرات المدافع .. ولو كانت هناك معادن على الحبل فلن تمهد الطريق فحسب ، بل ستكون الطريق ذاته ! »

- « إذن دعنا نخرج للعراء .. أليس أكثر أمناً ؟ »

وارتدت عباءتها من جديد ، وكذا فعل (آدم) ، وأعطاها ذراعه لتتأبطه بعد ما استوثق من أن مسدسه يعمل بكفاءة .. وقررا أن يذهبا إلى مزرعة (ميرسى) ليتأكدا من أن الأمور على ما يرام مع جدّ (ميمى) ..

كانت العاصفة عنيفة ولها صخب يصمّ الآذان ، واستطاعت (ميمى) أن تظل على قدميها بكثير من العسر .. أمسكت بزوجها بقوة ، ووصلا إلى المزرعة .. كانت الأضواء كلها مطفأة ولا صوت هنالك ، لكن (ميمى) أدركت أن كل شىء على ما يرام .. وهكذا اتجها إلى (كاسترا ريجيس) ..

كان أول ما تعثرا فيه هو حبل الطائرة الذى تركته لدى (آرابيلا) على الأرض ، وتنهد (آدم) وقال لها فى حذر وبصوت هامس :

ـ « حيث هذا الحبل يكمن الخطر يا صغيرتى .. لسوف يمشى البرق فى هذا الطريق بالذات ، والآن أريد منك أن تعودى للدار جريًا ، وتحاشى هذا الحبل فى أى موضع .. سألحق بك بعد قليل .. »

ـ « كل ما أردت هو أن أكون معك حتى فى الخطر .. فلا تحرمنى هذا الحق .. »

ـ « ليكن يا صغيرتى .. وأحمد الله أن زوجتى تطالب بشىء كهذا .. فلنبق معًا ، ولنلق ما أراد اللّه بنا .. »

راحا يمشيان وراء الحبل محاذرين أن يدوسا عليه ، وكان له لون مميز واضح ، فوجداه يتجه إلى (أيكة ديانا) .. كان (آدم) قلقًا ، فهو يعرف جيدًا أن (أيكة ديانا) ملأى بالمتفجرات ، و (ميمى) لا تعرف هذا .. لذا طلب منها أن تبتعد وتبحث عن طرف آخر لهذا الحبل ..

هنا ـ قبل أن تصدع بأوامره ـ بدأ البرق ، والتمعت السماء مرارًا ، فاحتضن (آدم) زوجته ، وقدَر من الفترة ما بين البرق والرعد ، أن قلب العاصفة مازال بعيداً .. لكن من الواضح أنه يدنو منهما سريعًا ..

والتمعت السماء بوميض جعل الموجودات تبدو كأنما تحجرت فى مكانها .. بدا كشجرة مقلوبة هائلة تتدلى من السماء .. ثم هوى شريط من برق فوق برج (كاسترا ريجيس) ، ورأى (آدم) البرج يرتجف ويهتز ، ثم يهوى كأوراق اللعب ..

وانفصل لسان أزرق ، وراح يركض بسرعة مذهلة نحو (أيكة ديانا) .. ومنها تصاعد صوت خشب يتهشم ، ثم صرخة غضبى جعلت فؤاد (آدم) الجرىء يتجمد .. ودوّى صوت انفجار مروّع آت من تحت الأرض ... ثم راحت (أيكة ديانا) تتهاوى ، كاشفة لعيونهم عن البئر المهولة التى راح الصراخ يصّاعد منها ..

لكن ما رأته (ميمى) كان قمينًا بأن يفقدها النوم

طيلة حياتها.. لقد كانت الانفجارات مستمرة فى البئر، ومع كل انفجار كانت كتلة رمـال مخلوطة بالدمّ تُقذف من البئر ، ومعها قطع مـن لحم ممزق ودهـن ... قطع من كـائن كـان حيًّا مـن ثوان،، لـذا راحت تلكم القطع ، ترتجف متشنجة ، كأنمـا كـل قطعـة منهـا تصرخ بدورها ...

كان بعض القطع مغلفًا بجلد ذى قشور ، كأنه جلد ثعبان هائل .. واستطاع (آدم) أن يتبين أشلاء الدودة البيضاء كما رآها وسير (ناتانييل) بين الأشجار فى تلك الليلـة .. وبدأت الأشجار تهتز، والمنزل نفسـه يتأرجح ، كأنما يوشك على مغادرة جذوره .. ومن كل صوب تصاعدت النيران ..

ثم بذات السرعة هـدأ كل شىء وسـاد الصمت ... صمت له لون الظلام ..

وأخيرًا بدأ ضوء الشمس الوليد ينبلـج معلنـًا نهايـة الكابوس ...

* * *

ولم ير (آدم) فراشـه فى تلك الليلة .. لقد مشى ويده فى يد (ميمى) ، نحـو (لسر هيل) محـاولين ألا يفكرا فى كل المشاهد الشنيعة التى رأياها فـى تلك الليلة .. وكان الصباح بهيجًا باسـمًا كأكثر ما يحدث بعد العواصف العاتية ..

واقتاد (آدم) زوجته إلى الفراش ، وأرقدها هناك ثم أرخى ستارًا على النـافذة ليسمح لضـوء الشـمس بالدخول على نحو يطمئنها .. وظل معها حتى استولى النعاس على جسدها المنهك ، ثم اتجه لغرفـة المكتب حيث كان عمه والسير (ناتانييل) يشربان الشـاى .. وكانا يعرفان بكل شىء بالطبع ..

فى البدء زاروا (أيكة ديانا) وكانت قد تحولت إلى أنقاض بـدت فـى أسـوأ حـال فـى ضـوء الفجـر .. واستطاعوا أن يروا البئر .. لكن لم يجدوا بقايا من أشلاء الدودة البيضاء ولا دمائها .. لقد قذف الانفجـار ببعضها بعيـدًا ، وابتلعت البئر بعضـها ثانية .. وبعد دقائق من المشـاهدة ، شعروا بـأن الاضطراب تحت

الأرض لم يتوقف بعد .. كانت التربة تفور وتبرز أحشاؤها وبقايا الوحش من آن لآخر .. وكان مشهدًا مريعًا ، لأن التعفن يدبَ سريعًا جدًا فى الأجساد التى أهلكها البرق ..

ومن دون اتفاق ابتعد الرجال لينشقوا النسيم بعيدًا عن هذا الهول ..

* * *

وكان انفعال الأيام الأخيرة قد لعب دوره مع أعصاب (ميمى) ، حتى غدا تغيير الجو حتميًا بالنسبة لها كى تتلافى الانهيار ..

وقال مستر (سالتون) العجوز :

ـ « أحسب أن الوقت قد حان أيها الشابان كى تظفرا بشهر عسل .. »

والتمعت عيناه إذ قال هذا ..

كانت نظرة (ميمى) الناعمة الخجول إلى زوجها الشجاع ، هى خير إجابة .

* * *

[تمت بحمد الله]

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

عرين الدودة البيضاء

كانت المقاطعة كلها تعرف أن لغزًا مخيفًا يحيط بالليدى (آرابيللا) ، لكن أحدًا لم يعرف ماهو ، حتى جاء (آدم سالتون) .. وها هى ذى القصة الكاملة لماحدث ، كما كتبها (برام ستوكر) ، نحيا معها فى عوالم الرعب القوطى ، بقلاعه المظلمة وكونتيساته الغامضات ، وبروقه ورعوده ، والضحايا البريئات معدومات الحيلة ، والسادة غريبى الأطوار .. إنه عالم ساحر ساحر .. لكنه لايناسب ذوى الأعصاب الضعيفة ..

32

الثمن فى مصر ٩٥٠ قرشًا
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
غذاء الملكات

